فكرة كمنويلث إسلامي

الطبعة الأولى
1445 هـ / 2024 م

اسم الكتـــاب: فكرة كمنويلث إسلامي
المـــؤلـــف: مالك بن نبي
موضوع الكتاب: فكر
عدد الصفحات: 96 صفحة
عدد المـــلازم: 6 ملازم
مقاس الكتـاب: 14*20
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-375

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

فكرة كمنويلث إسلامي

مالك بن نبي

دار البشير

بين يدي الكتاب

شُكِّلَ كومنولث الأمم في عام 1949 للحِفَاظ على الارتباط بين الدول التي كانت ذات يوم جزءًا من المستعمرات البريطانية، ولكنها كانت تعتبر «حرَّة ومُتَسَاوِيَة». تمتدُّ دول الكومنولث حول العالم، ويبلغ عدد سكانها مجتمعَةً 2.5 مليار نسمة، أي ما يقرب من ثلث سكان العالم. إنها مجموعة متنوِّعة تَضُم أعضاء من أكبر البلدان في العالم وأصغرها وأفقرها وأغناها. خمسة عشر عضوًا لديهم العاهل البريطاني كرئيس للدولة (بما في ذلك نيوزيلندا)، وخمسة لديهم ملكهم الخاص و36 جمهوريًّا. وعلى الرغم من الاختلافات، فإن دول الكومنولث لديها شعور بالقرابة والوَحدة، وغالبًا ما توصف بأنها «عائلة الأمم». فهم يتشاركون عديدًا من العناصر الثقافية التي تأتي من ماضيهم الاستعماري المُمَاثِل، بما في ذلك اللغة الإنجليزية، وبعض الألعاب الرياضية، وأنظِمَة مُمَاثلة من القانون والتعليم والحكومة. ورئيس الكومنولث هو الملك تشارلز الثالث.

يعمل الكومنولث نيابة عن الدول الأعضاء لتعزيز السلام والازدهار. ويشمَل ذلك مساعدة البلدان في تطوير الأعمال التجارية الصغيرة، والتشريعات، ومراقبة الانتخابات، وحقوق الإنسان، وخاصة تعزيز دور الشباب والنساء وحقوقهم. هناك عدد كبير من المُنظَّمات والشبكات تحت مظلَّة الكومنولث التي تقوم بتنفيذ هذا العمل ودعمه.

ميثاق الكومنولث

في عام 2012، اعتَمَد الكومنولث ميثاقًا يحدِّد قيم المنظَّمة والالتزامات التي من المُتَوقَّع أن يقوم بها الأعضاء. ومن الأمور الأساسية في المِيثاق المعتقدات المتعلِّقة بالديمقراطية وحقوق الإنسان وسيادة القانون.

حكومة الكومنولث والمنظمات (أمانة الكومنولث)

تُدِير أمانة الكومنولث في لندن عمل الكومنولث، وهي النقطة المركزية لجميع الحكومات الأعضاء. يمكن للأمانة أن تقدم للحكومات المشورة السياسية والمساعدة العملية. كما تعمل على إيجاد حلول للقضايا السياسية والاقتصادية الحساسة التي يواجهها الأعضاء. وتجري وزارة الخارجية والتجارة اتصالات منتَظِمة مع الأمانة العامة من خلال مفوَّضيتها العليا في لندن.

يرى مالك بن نبي أنَّنا إذ قُمْنا بالمقارنة بين تطور اليابان الحديثة وتطور الشعوب الإسلامية منذ قرن من الزمان؛ لقُلْنَا إن هذه الشعوب قد دَخَلت عالم الأشياء، وأنها لَمَّا تدْخلْ بعدُ في عالم الأفكار كلية. ويرى وأتَّفِق معه في ذلك- إن مصر هي البلاد الإسلامية الوحيدة التي تهْتَم بإنجاز منشآت جديدة ضرورية لحياتها الداخلية ولاتصالها بالخارج.

فالعنصر الصِّيَاغِي الذي أبْرَز إلى الوُجُود من الوجهة الجغرافية - السياسية: المساحات الكبيرة المخططة، وسَرَّع التطوُّر الاجتماعي للكُتَل البشرية التي تعيش في هذه المساحات، وكذلك يُقال إن القرن العشرين، هو قرن الجغرافيا السياسية؛ لأن مشكلاته أميل إلى عِناق مُعطَيَات المكان؛ وبما أنه قد شاهَد ظهور المساحات الكبيرة المُخطَّطة، فقد أدَّى به اطِّراده في هذا الاتجاه.

لقد طرح مالك الفكرة، لكنَّه لم يحدِّد الوسائل والآليات، بل ترَكَها لرجال الاقتصاد والقانون والجغرافيا السياسية، وهكذا نَجِد المفكرين يهتمون بالفكرة تاركين للعلماء والخبراء سُبُل التنفيذ وآليَّاتِه.

إن الكومنولث البريطاني ليس دولة، ولا فيدرالية ما دامت كل بَلد عضوة فيه تمارِس سيادتها في كل المجالات، وتملك تمثيلها الديبلوماسي الخاص بها في الخارج. وعلى العكس من ذلك، فإن الولايات المتَّحِدة الأمريكية تكون فيدرالية ذات تمثيل ديبلوماسي واحد.

من هنا يدعُو مالك بن نبي لاستِلهام النموذج البريطاني، وأضاف أن الكومنولث الإسلامي -باعتباره هيئةً مُمَرْكِزَة ومركزًا للبحوث- يجب أن يدرس أيضًا بعض المشكلات المعينة ذات الصبغة الفنية الخاصة بالمجتمع الإسلامي.

وعلى الرغم من كل الصراعات التي تشهدها المنطقة العربية حاليًا، حيث تشتعل بها الحروب والمعارك من شرقها إلى غربها، فإن تحقيق خطوات فعلية على أرض الواقع لإحياء ملف السُّوق العربية المُشتَركة أو الوَحدة الاقتصادية لا يُمْكِن أن يتم إلا بعد عِدَّة خطوات عمليَّة، وهي تفعيل منطقَة التجارة الحرة العربية الكبرَى، ثم إنشاء الاتحاد الجمركي العربي أولًا.

ففي تقرير المركز المصري، قال إن تطبيق منطقة التجارة الحرة العربية تعثر بالرغم من أنه كان متفقًا على إزالة التعريفات الجمركية فيما بين الدول أطراف هذه المنطقة مع حلول عام 2005، وذلك بسبب الخِلَافِ حَوْل قواعد المنشأ وعدم وجود نُصوص قانونية للقيود غير الجمركية، كما أن جزءًا من المُشكلة يكْمُن في أن نصَّ القرار المُدشَّن لمنطقة التجارة

الحـرة العربيـة لا يعكِس جميع ملفَّـات التفـاوُض بمُنظَّمة التِّجـارة العالمية، فعـلَى سـبِيل المِثَال، غيـاب نُصوص واضِحَـة حَوْل ملفَّـي الصحة والصحة النباتيـة والقيـود الفنيـة عـلى التجـارة فيـما عـدا الإشـارَة إلى القيـود غـير التعريفيـة، وعـلى الرغـم مـن كل ذلـك، فإننـي عـلى ثقـة بـأن الأمـر بات وشـيكًا عـلى الحدوث.

ولقـد أسـعدني مـا قامـت بـه دار حـكاوي مـن الاهتـمام بالأعـمال الفكريـة لمالـك بـن نبـي، وإنَّنـي أدعـو كل العلـماء والمفكِّريـن للمسـاهمة بوضـع تصـوُّرٍ لهـذه الفكـرة الكريمـة، وأمَّتنـا تسـتطيع بفضـل أبنائهـا، وإدراكهـم للمتغـيرات العالميـة.

الأستاذ الدكتور

عبد الهادي مقبل

أستاذ ورئيس قسم الاقتصاد السياسي والتشريعات الاقتصادية بكلية الحقوق جامعة طنطا

عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين لتخصص الاقتصاد والتشريعات الاقتصادية لكليات الحقوق

رئيس اتحاد خبراء الضرائب العرب التابع لجامعة الدول العربية

نائب رئيس الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والتشريع

الأستاذ المنتدب بالمعهد العالي للدراسات الإسلامية

المحامي بالنقض والإدارية والدستورية

القسم الأول:
مشروع دراسة شاملة

أ - تأريخ الفكرة

1 - المحيط الجديد:

إن الحاج المسلم الذي تضعه (الحافلة)، أثناء وقفة من وقفاتها، في إحدى المحطات، تحت صوامع حي الأزهر، التي طاما اختلطت بأحلامه كإنسان ذي عقيدة- يغتنم فرصة نزوله غالبًا، لزيارة القاهرة.

وبقدر ما يمكث داخل الدائرة التي حافظت فيها الحياة على طابعها التقليدي في قليل أو كثير- في حي (الموسكي) وما يجاوره على سبيل المثال- تحتفظ ارتساماته بلونها العادي، مع مرتفعات ومنخفضات يتلقاها انفعاله، من حب استطلاع طبيعي لديه.

إنه يوجد في محيط توقظ فيه كل خطوة يخطوها، ذكرى تركتها في وعيه، حكايات أجيال الحجيج السابقة له من أسرته.

فهو المحيط الذي ترعرت فيه طفولته بأحلامها الملونة، وتكونت فيه شخصيته كذلك؛ إن له روابط لا مرئية، ووشائج من القرابة الخفية، مع هذا العالم من الصوامع، والتوابيت المطعَّمة بالعاج، والأخشاب الثمينة؛ حيث لا يقاس الزمن بغير الفواصل بين الصلوات، أو بمواعيد الوجبات الغذائية الثلاث!

فآلاف الأشياء الصغيرة، المعروضة على جنبات الدكاكين، وهذه الأشباح المارة من السكك الصغيرة، وتلك الجماعات التي تتجاذب

الأحاديث أمام المقاهي الشعبية المنبثة كما اتفق في أي زاوية أو ركن، وهذا الظل الظليل حول المساجد التي ينتظر المتسوّلون أمام أبوابها إحسان المحسنين، مرددين أدعيتهم وصلواتهم الخالدة!

وكذلك المرأة التي تدفع - لا شعوريًا- بطرفٍ من برقعها فوق رأسها.. كل هؤلاء يتكلمون مع هذا الحاج لغة مألوفة.

إنه عالم يعرفه حق المعرفة، لأنه يحمل صورته في أفكاره الحميمة، في أحاسيسه وردود أفعاله.

وهو العالم الذي فُصِّلَ على مقاسه، فوضع في ذاته صورته الحميمة، وأمده بالمعايير الأساسية للحكم على الأفراد والأشياء، وانطبع على مصيره..

ومن جراء هذه الاعتبارات ذاتها، فهو لا يمثل بالنسبة إليه أيَّ إلْغازٍ، ولا يضع أمامه أيَّ معضل يضايقه.

فهذا الحاج المسلم، لا يكاد ينتبه إلى الطوابير التي تجمع أطلال هذا العالم، وتحملها بعيدًا، لتهيئ مكانًا لطرقات جديدة، وحركة مرور أخرى، ولإيقاع حياتيّ جديد كذلك.

ولكنه إذا ما اقتادته الصدفة في نفس صبيحة هذا اليوم، خارج دائرة حي الأزهر، ودفعت به خطاه إلى المدينة الحديثة.. اختلفت انطباعاته شيئًا فشيئًا - وبطريقة غير محسوسة- باختلاف الزخرف الجديد.

إنه في محيط آخر، قد رأته عيناه في أمكنة أخرى، ولكن وعيه لما يتمثله بعد. فرجلاه تنضويان تقدُّميًا، في عالم يتبدَّى له منه: أن قلبه وفكره ووعيه، لما تصل إليه بعد كلية. ويستشعر ارتساماته، ومشاعره وأفكاره، تتبدل في لونها. فهو في عالم من الأشياء، والأشباح، والمظاهر، التي تراها باصرتاه، ولا تعتدها بصيرته بعد تمامًا.

إنه المحيط الجديد، الذي يُؤَطِّرُ حياته، ولكن (أناهُ) لم تتقبله بعد في (إنَّيَّتِه) أو ذاتيته، ولا تمثلت بنوده، ومواضعاته، ولا عرفت مقاييسه ومعاييره؛ وإن لغته لتبدو له غريبة كذلك، فالمرأة المرتدية (للشوال)، يذكره رداؤها عرضًا بغرابته، فهو يحس بطريقة غامضة، أن بينه وبين هذا العالم، تخلُّفًا وانقطاعًا معيَّنين، من غير أن يعرف بالضبط، كيف يحدد سببها الحقيقي.

فهذه الجولة الصباحية أو المسائية في أحياء القاهرة، تلخص على نحو من الأنحاء، بالنسبة إلى الحاج المسلم، تاريخه الاجتماعي الخاص.

فقد ولد في عالم أخذت عربات النقل تحمل منه آخر بقاياه!

وإذا ما اقتادته جولته إلى (ميدان التحرير)، فإن حب استطلاعه سيستوقفه أمام بناية (المجمَّع)، التي تهيمن كل الميدان بأدوارها الثلاثة عشر.

ثم ينزلق بصره نحو المسجد الصغير، الذي يبرز بشبحه الأنيق، محاذيًا لكتلة البناية الإدارية الضخمة فيَبْدَهُ نظرَه التباين البَيِّن بين العمارتين؛ إذ يتعين توافر عشرين مكعبًا في حجم ذلك المسجد تقريبًا، لكي تضارع حجم بناية (المجمَّع)!

وإذن فهناك انقلاب واضح في سُلَّم الأشياء؛ إذ أن الحاج، قد ولد في عالم تقاس فيه الأطوال، على مستوى المساجد- كمسجد (ابن طولون) أو (الجامع الأزهر) - وهو يحيا الآن في عالم، تقاس فيه الأطوال على مستوى بناية إدارية..

وهذا الانقلاب، يمثل عَرَضًا من أعراض تطور العالم الإسلامي، منذ نصف قرن، ويعني أن سُلَّمَ الأشياء عندنا قد تبدل.

ولكننا.. يجب أن نضع الإنسان المسلم هو الآخر، في هذا المستوى نفسه- (المسلم المقود كإنسان بضرورات اجتماعية، والمدفوع كإنسان عقيدي برغائب أخلاقية معينة) - لنفهم ما يَعْتَمِلُ في داخله؛ ويمر بوعيه..

2 - أوَّلية المعيار الاجتماعي:

إن الإنسان المسلم لما يعرف بعد تمامًا، عالم الضرورات، لأنه لم يصنعه بنفسه.

إنه عالم مستورد، تدخل في حياته بفعل تقلُّبات تاريخه الخاص.

لقد كان لا يزال نائمًا، عندما وجد نفسه منْضَويًا فيه، حوالي منتصف القرن التاسع عشر، عندما فرضته النزعة الاستعمارية عليه وعلى نشاطاته، وعلى أذواقه أيضًا، بالتدريج.

فهو يستطيع المعارضة في طابعه الخاص، لأنه في باطن الأمر، عندما يفحص تلك الضرورات عن كثب، لا تبدو لعينيه جد ضرورية.

فأي ضرورة يا ترى في رقص (الروك آندرول Rock and roll) أو في ارتداء (الشوال).

ولكن عالم الضرورات -الحقيقية أو المزيفة- يبلغ حدًّا من التعقيد، لا يبدو من السهل إزاءه عمليًا، أن نقيم على عتبة كل (مَوْئِل) مصفاةً لا تسمح بالعبور لغير الضرورات الحقيقية.

فهذا النوع من التكرير أو التصفية يمكن أن يحدث لا على عتبة كل أسرة بمفردها، ولكن على عتبة المجتمع نفسه.

وهذا هو الذي لم يحدث بالفعل كما هي الحال بالنسبة إلى رب الأسرة الذي يريد توجيه تربية أطفاله وحياتهم إذ يجد نفسه محمولًا على إعداد حساب معين للضرورات الزائفة..

هكذا غزت الحياة الإسلامية- بدون تصفية أو بنصف تصفية- أشياءُ عديدة ليست ضرورية مطلقًا، ظلَّت تقلب التقاليد والأفكار والرغائب التي كانت تحرك تلك الحياة حتى يومنا هذا..

ونحن ندرك أن الوعي الإسلامي، قد- أصبح ممزقًا منذئذ، بإن الرغبة في استدراك تأخر يعرف شدة وقعه في المجال السياسي- ونعني به

التأخر الذي حاق به على الصعيد الاجتماعي- وبين الرغبة في إنقاذ تراث أخلاقي يعرف مدى قيته.

وإذا كان يمكن لهذا التوق المزدوج أن يجد- في شكل من أشكال التطور الموجه- تعبيره في صورة تركيب يتم فيه التوفيق بين الحدود المتضاربة والمتنافرة، فإنه على العكس من ذلك تمامًا قد أنتج تناقضًا صريحًا في التطور الحقيقي المتَّبَع من طرف البلاد الإسلامية منذ نصفه قرن.

فقد مُزَّق وعي الإنسان المسلم في يومنا هذا من جراء التناقض، لأن هذا الإنسان لم يعرف كيف يندمج في عالم زمني هو مرغم على الحياة فيه، وإن كان لم يتمثل بعد معاييره.

وهذا حدث من أحداث تطور (إعوازيّ entropique) كان قد زاد من حجم الأشياء أكثر مما زاد في حجم الأفكار..

وقد ترتب على ذلك في الفكر الإسلامي. (تقاطب polarisation) مزدوج، شطر حياته النفسية إلى عالمين منفصلين: فالمسلم يعيش في عالم غريب له منه (أشياؤه) وليس- (أفكاره)؛ وتلك خاصية النفسية الصبيانية، عندما يبدأ الطفل بوضع يده على الأشياء من غير استعداد لفهمها، فإذا بنا نراه أحيانًا يمد يده إلى القمر جادًا في طلابه، ولكن من غير طائل بطبيعة الحال! فهذه الحركة.

تبدو لنا جذابة، لدى الطفل الذي تضحكنا منه هذه البادرة الدالة على براءته، عندما يندفع في أول تجاربه، لالتقاط.

عود ثقاب مثلًا، أشْعِل بغية إثارة حبوره..

ولكننا ندرك كم يكون مثل هذه الحركة فاجعًا، في مجتمع مندفع وراء (الأشياء)، وكم يمكن أن تكون حروق هذا المجتمع نفسه شديدة الإيلام!

3 - التقليد و (التمثُّل assimilation):

إن الـذي يحصـل بالفعل، هو أن المجتمع الإسـلامي، يقـوم بتجربة مؤلمة، منـذ نصف قـرن، وإذا أردنا الدقة قلنـا منذ منتصف القرن التاسـع عشر.

فهـذا المجتمـع قـد انضوى- منـذ أن اسـتيقظ على ضربـات النزعة الاسـتعمارية، وعـلى نـداء رجـال مـن أمثـال جمـال الديـن الأفغـاني والشـيخ محمـد عبـده- في حركـة (النهضـة)؛ وقـد تعورف على تسـمية هـذه المرحلـة بالنهضة- وهـي المرحلة التي تبـدأ منذ اليقظـة الأولى لهذا المجتمـع حوالي سـنة 1858، وتسـتمر حتى وضعه الراهـن- ولكننا إذا مـا حللنـا هذه المرحلـة لإبـراز خصائص الفكر الإسـلامي، طـوال هذا القـرن مـن تطـوره، نجدهـا تنقسـم إلى ثلاثة عصـور متميـزة: أ - عصر النـوم الذي اسـتمر قرونًـا عديدة.

ب - وعصر الانتباه أو استرداد الوعي.

بر- وعصر الفوضى والذبذبة الراهنة.

وهذه العصور الثلاثة تتطابق بدقة، مع الأطوار الثلاثة لتجربة الطفل:

أ - الطـور الأمومـي: حيـث لا يكـون لـدى الرضيع المتشـبث بثـدي أمه أيُّ مفهـوم لعالم الأشـياء.

ب - والطـور (قبـل الاجتماعـي) حيث يبـدأ الطفل في الدخـول إلى عالم الأشـياء، وإن كان لا يـزال يجهـل كل شيء عن عـالم الأفكار.

جـ - والطـور الاجتماعـي (المـدرسي ومـا بعـد المـدرسي) حيـث يحاول الطفـل أن يقيـم في داخلـه الصلـة بـين عـالم الأشـياء وعـالم الأفكار.

ولـو حـاول موجهـو العـالم الإسـلامي تأمل هـذا التخطيط البسـيط، لتفهمـوا بـكل تأكيـد، وبطريقـة أفضـل، الآليةَ النفسـية المهيمنـة على تجربة

الجيل الإسلامي الراهن، والصعوبات التي يتعين على هذا الجيل التفوُّق عليها، وكذلك المشاكل الناتجة عن هذه الصعوبات في المجال السياسي والاجتماعي.

ومهما يكن من شيء فنحن إذا طبقنا كل دراستنا التخطيط المتعلق بنفسية الطفل، علمنا أن الطفل يجتاز مرحلة من التقليد يسلك أثناءها سلوك كبار الأشخاص، أمثال أمه وأبيه والكبار من إخوته، من غير أن يفهمهم.

إنه يقلدهم وكفى.

فهو يقلدهم أولًا في اللغة، وبتقليده للأصوات التي لا يفهمها، يتعلم الحديث.

ولكن لنفرض أنه لسبب ما قد واصل تقليد هذه الأصوات حتى سن الثامنة والعاشرة..

إننا نرى في هذا بالتأكيد حالة شاذة؛ أعني على وجه الدقة حالة مرضية يكون لأهل الطفل إزاءها الحق ولا شك في التحير، واللجوء إلى أحد الأخصائيين.

وهناك ملاحظة أخرى يجب مراعاتها أيضا في نفسية الطفل قبل تطبيقها على المجتمع الإسلامي: فالأهل يعرفون جيدًا، وبدقة كافية من جراء ظاهرة التقليد نفسها، خطرَ القدوة أو المثال السيء بالنسبة.

إلى طفلهم، ولذلك نراهم يعدّون لهذا الأخير رقابة معينة في المنزل والمدرسة والشارع، لأنهم لا يرون من الضروري ولا من المفيد، أن يقوم الطفل بكل تجربة يقع عليها بصره..

فهناك حتى التجارب المؤذية التي يمكنها أن تعطل لديه كل تقدم أخلاقي وعقلي.

ولهذا السبب عينه ولا شك أخذ التحليل النفسي منذ (فرويد Freud) يبحث، في حالة شذوذ البالغ، عن الأسباب المرضية في التجارب البعيدة لهذا البالغ نفسه، عندما كان طفلًا..

والآن فلننتقل بهذه الملاحظة المزدوجة- المتعلقة بالطفل المتأخر في تكوينه اللغوي، والبالغ الذي اختل سلوكه، من جراء تجربة بعيدة، لننتقل بها إلى موضوعنا لكي نتفهم ماهية المشاكل التي تعترض المجتمع الإسلامي حاليًا.

ولكي يزداد تفهمنا لمدى الاعتبار الأول، المنصَبِّ على نزعة التقليد، لنحاول تأمله على ضوء مثال محسوس، يضفي على ذلك الاعتبار كل دلالته الاجتماعية.

لقد أرخنا طفولة العالم الإسلامي الراهن، بسنة 1858، بغية تتبع تطورها بمدى معين من الدقة.

ولنأخذ تاريخًا آخر، وليكن سنة 1868، التي تسجل ميلاد مجتمع آخر: هو المجتمع الياباني الحديث.

ها نحن إذن، وبفارق عشر سنوات تقريبًا- وهو فارق غير معدود، أو لا يعتد به كثيرًا، في حياة المجتمعات البشرية- أمام ظاهرتين معاصرتين لطفلين توأمين.

ولكن العجيب أن نلاحظ، بأيِّ مدى من السرعة، استطاع الطفل الياباني، اجتياز الطور الذي أطلقنا عليه اسم (الطور ما قبل الاجتماعي) في نفسية الطفل.

فهو قد قلد (الكبار) كسائر الأطفال، لكي يتعلم أول الأمر إنشاء الألفاظ، ولقد قلد أوروبا في هذا المجال بطبيعة الحال، فاشترى له (الأشياء) من غير ما فهم (للأفكار) التي تمثلها.

ومع ذلك، فالعجيب حقًا، هو تلك السرعة التي تعوَّد بها هذا الطفل، على لغة الكبار من الأشخاص، حتى لقد اعْتُرِفَ له سنة 1905، بأنه قد أصبح يجيد الكلام بإطلاق المدافع في موقعة (ميناء أرثير Port Arthur)، وهي لغة سيئة بالتأكيد، ولكننا ندرس هنا حالة اجتماعية، وليس حالة أخلاقية!

وهذه الحالة تبلور لنا حالتنا نحن، بصورة مميزة؛ إذ أننا، وحتى بعد مرور قرن من الزمان، لما نتعود بعد، على لغة كبار الأشخاص؛ فاليابان قد تمثلت (الأفكار)، بينما المجتمع الإسلامي لا يزال يشتري (الأشياء)!

4 - فوضى (الأشياء) و (الأفكار):

على أن هذا المجتمع ليس منغلقًا على ذاته: فهو يكون جزءًا من مجتمع عالمي (فوق صياغي Supertechnique)، يبيعه (الأشياء)، ويفرض عليه في الوقت نفسه مقاييسه، ويرغمه على إعداد اعتبار لمعاييره، وعلى تمثل «أفكاره» حسنها ورديئها.

ولقد كان تطوره منذ نصف القرن، مشروطًا بهذه الرابطة المادية الصرف، والحتمية كذلك.

ولقد ردّ المجتمع الإسلامي على مفعول هذه الرابطة، باعتبارها إلزامًا في الحقل الاقتصادي، و (فوق الإلزام) في المجال الفكري، فكان رده هذا، لكي يتمكن من تحمل الثقل الساحق، لكومات (الأشياء) التي أدخلها في حياته، ولكي يستوعب الضغط الضخم (للأفكار) التي تهدد شخصيته وبقاءه: بالإلزام من طرف الأشياء، وما فوق الإلزام من طرف الأفكار؛ فما أن يقذف أحد مصمِّمي الأزياء في باريس بموضة خارجة عن العرف، حتى تثار مشكلة (الشوال) الأخلاقية بخطورة في العواصم الإسلامية، حيث يستدعي الحدث استفتاء المشايخ الموقرين في هذا الموضوع! وهكذا

يمدنا المجتمع الإسلامي بمفاجآت تضيء لنا بوضوح طورًا غريبًا من تطوره؛ وإننا لنلتقي في هذا المجتمع أحيانًا بلمحات أكثر بهاء، وأشد جاذبية في الوقت ذاته، لدى بعض البلاد التي لا تزال في حداثة ذلك التطور، حيث لم يتخلص الجيل الراهن بعد، من الطور الاجتماعي السابق للطور الذي نحن بصدده.

فنحن نرى؛ على سبيل المثال، الشرطة السعودية، تنظم حركة مرور هامة لقوافل السيارات التي تتضخم بشكل مفرط أثناء موسم الحج، حتى ليؤول الأمر بطبيعة الحال إلى تكاثر الزحام في بعض مراكز هذا المرور الوقتي، وبالخصوص في مكة وعرفات و (مِنَى)، وإذا بنا نرى الشرطي المنهمك بضخامة طابور العربات، يتصرف تمامًا كما لو كان أمام قافلة من العير.

لقد صادف أن كنت أؤدي فريضة الحج منذ حوالي ثلاث سنوات، فرأيت الشرطي، وهو منهمك لبعض الوقت، وإن كانت البسمة لا تفارق محياه، يطرق بضربات عصاه التي يمسكها في يده إذ ذاك، على ظهر العربة التي أوجد داخلها، تمامًا كما لو كان يعطي نفس الضربات لأحد العير، كي يجعله يمر مسرعًا، ويدع القافلة تتقدم في سيرها! ولا ريب في أن هذه الصورة مفرطة في البساطة، باعتبارها علامة من علامات التطور الاجتماعي للعالم الإسلامي، ولكنها تترجم بدقة كافية عن طور من أطوار تطوره النفسي..

وإننا لنستطيع جمع صور أخرى، لها الدلالة العَرَضِيَّة نفسها، بالنسبة إلى الحالة الاجتماعية والنفسية الراهنة.

ففي أثناء موسم الحج ذاته، يمكننا أن نشاهد على سبيل المثال، أحد الشبان (يطوف) في شوارع (المدينة) المزدحمة، على دراجة مزخرفة، كما

لـو أعـدت ليوم مهرجـان، وقـد جهـزت دراجتـه الصغـيرة، بقصاصات من الأوراق الزاهيـة الألـوان، وغطيـت العجلتـان بالقطـن (الكرتـوني) المزهـر؛ وعندمـا يمر في المسـاء، نـرى في مؤخرة دراجتـه ثلاثة أو أربعة أضـواء حمراء، وطاقـمًا كامـلًا مـن الفنـارات الأمامية..

فهـذا الشـاب كـما هـو مشـاهد، مدفـوع بشـعور الغـيرة لمنافسـة مُـلَّاك سـيارات (الكـدلاك Cadillacs)!

وإن هذا النوع من الغيرة، ليجعلنا نبتسم بعض الشيء لسذاجته.

ولكـن لننتقـل بنظرنـا إلى أعـلى مـن ذلـك بقليـل، وليكـن في هـذه المـرة حـول المناقشـات الجاريـة في حياتنـا الفكريـة، حيث نـرى الكثير مـن الجهود الكبـيرة، والجديـرة بالتقدير، تحاول أن تشـق طريقًا أمام المجتمع الإسـلامي؛ إننـا نشـاهد أحيانًا بعض المحـاولات المتميـزة الراميـة إلى أَقْلَمَةِ أفـكار يمكن أن تكـون شـديدة الأصالـة بالنسـبة إلى وسـطها الأصـلي، ولكنهـا تبـدو في وسـطنا نحـن، قريبة الشـبه بتلـك الطُّـرَفِ العصرية التـي (تبعثرهـا) الصدفة أحيانًـا، في قرانـا الجزائريـة، والتـي نجهـل تاريخها واسـتعمالها.

وبهذه الطريقة عينها، تبث الصدفة أحيانًا، في أدبنا مواضيع غير منتظرة.

فهـؤلاء المولعـون بالشـعر والبـدع الخرقـاء، ربـما وجـدوا لذة مسـتعذبة في بابهـا، تضمنهـا مقطـع شـعري مـن شـعر (الزهـاوي)، أراد به الشـاعر أن يعطينـا نوعًـا من التفسـير لنشـأة الكون، فذكـر أن أصل الخليقة هـو (الأثير)!

وهـذا أمر حسـن ولا شـك من ناحيـة (القافيـة)! ولكن الشـاعر الكبير، لم يتصور.

أن الإلـه الـذي وضعـه أصـلًا لنظريتـه في نشـأة الكـون حـوالي سـنة 1925م، قـد هلـك منـذ أكثر من عشر سـنوات قتيلًا عـلى يد (فيزيـاء) القرن

العشرين؛ إلا أن هذا الإله الهالك، لا يزال يجر خطاه في عدد لا يستهان به من مباحثنا الأدبية والفلسفية: فقد دخل في عالم (أفكارنا)، في الوقت نفسه الذي لفظه فيه العلم من عالمه!

وفي أيامنا هذه تُدَاعَبُ النزعة الوجودية في العالم الإسلامي، حيث يبذل - أو على الأصح- بذل مجهود معين، لأقلَمة بعض الأفكار (السارترية Sartriennes)، ولكننا نتساءل: أي علاقة يمكن أن تكون بين عالم (الأشياء) و (الأفكار) الذي أوحى إلى (جان بول سارتر John Paul Sarter) بكتابه: (الغثيان La nausée)، وبين عالمنا نحن؟!

حقًا إن التقليد ليذهب مذاهب بعيدة المدى، وهو لا يعضد في هذا المدى غير فوضى من (الأشياء) و (الأفكار): كعالمين منفصلين لا مجال في داخلهما لأي تنظيم، أو كسد يمين ليس بينهما أية صلة جدلية!

5 - الاضطراب:

وبافتقادنا هذا التنظيم الداخلي، الذي يضع كل فرد وكل شيء، حيث ينبغي أن يوضع، نجد العالم الإسلامي لا يمنح الفرد كل الضمانات الاجتماعية لتحسين عمله اليدوي أو الفكري، ولا يتيح له أن يجني ثمار هذا العمل.

وإذا كانت بلاد كمصر قد شُرِع فيها بالاهتمام بهذه المشاكل، فذلك راجع في الوقت ذاته تقريبًا لتطور الحكم بعيد سنة 1952م، وللاستمرار الاجتماعي الذي عضده (النيل) دائمًا في هذه البلاد، من حيث معاضدته للنظام الزراعي منذ آلاف السنين؛ ولسوف تزداد الخاصية الاجتماعية لهذا الاستمرار نموًا، مع حركة التصنيع.

ومهما يكن من شيء، فإن المشكلة تتناول هنا، من وجهة النظر الإسلامية بصفة عامة، ولم تعد لتتناول من الزاوية السياسية كما سنوضح أسباب ذلك فيما بعد.

وإذن فالمسلم يولد في مجتمع، لا يقدم له الضمانات الضرورية لاكتماله الاجتماعي.

وعلاوة على ذلك، فهو يأخذ بعين الاعتبار، وبطريقة غامضة في قليل أو كثير: أن ليس مصيره بوصفه فردًا، هو مثار القضية، ولكنه مصيره بوصفه (مسلمًا).

فالفرد يجد في نهاية الأمر دائمًا في بلاده، نفس الحظوظ التي هي لمواطنيه على سبيل التقريب، إلا إذا تدخل سبب شاذ، أو يد غريبة مثلًا في الإضرار به، ولكن حظوظه بوصفه مسلمًا، في المنافسة العالمية، أكثر ضآلة، من جراء بعض العوامل السلبية التي أثرت على تطور العالم الإسلامي منذ بضعة قرون.

وهذا مجرد تقرير للواقع المشاهد؛ ولكن يجب أن يوضع هذا التقرير داخل وعي الإنسان المسلم، لنتفهم بعض مظاهر سلوكه منذ خمسين عامًا.

فالفوضى في الأشياء وفي الأفكار كان من نتائجها الحتمية انعدام الأمن في المجتمع، والبلبلة في الأفكار والاضطراب في الأرواح.

فهناك دائمًا تبعية مشتركة بين الحالة الاجتماعية، والحالة الأخلاقية في وسط معين: فالفوضى الاجتماعية في أشكالها المختلفة، الاقتصادية والفكرية، تنتج الاضطراب الأخلاقي.

وهذا الاضطراب لا يترجم بطبيعة الحال، بنفس الطريقة في طبقات المجتمع المختلفة، ولا في عصور تطوره المختلفة.

فقد سلف أن أشرت في غير هذا المكان، كيف أجاب أحد الشبان المسلمين من سكان (موريتانيا Mauritanie) عن سؤال وجهه إليه

الضابط الفرنسي، والاستعماري اللامع المدعو (إرنست بسيكاري Ernest bsichari)، الذي لا يزال على معتقد ديني هش، والذي لم يعرف كيف يحتفظ بالعرفان المدين به للوسط (الموريتاني) الذي أتيح له أن يوجد في أفيائه، فقد حاول أن يضع الشاب المسلم الذي اتخذه دليلًا له في صحراء موريتانيا، أمام التفوق الصياغي الأكيد لأوربا، بغية وضعه في مأزق، يتوقع معه تصدعًا في عقيدة الشاب المسلم؛ ولكن هذا الأخير، من غير أن يفكر في إعداد أي حساب لرده، انفلت من ذلك المأزق مجيبًا بكل بساطة: «أنتم لكم الأرض، ونحن لنا السماء»!

وهذا النوع من التفكير يتيح لنا أن نأخذ بعين الاعتبار؛ أن الشاب المسلم قد انفلت في الوقت ذاته من المنافسة الأرضية، المتمثلة في الارتباط بالآخرين؛ ويبين لنا كذلك وبصورة حية، رد الفعل للإنسان الشعبي المسلم حوالي سنة 1912م.

وحتى في تاريخ أقرب من هذا إلينا لم تكفَّ الأسباب التي يمكننا أن نعزو إليها هذا الاضطراب اللاشعوري في فكرة الشاب الموريتاني تلك، عن ممارسة مفعولها بطبيعة الحال؛ فنحن لو نظرنا إلى بعض الاعتبارات المعينة، يمكننا أن نقول: إن ذلك الاضطراب قد زاد احتدامًا، في الحد الفاصل الذي يمكن أن نتصوره بين المستوى الصياغي (أو الفني) للعالم المخطط سنة 1912م، وبين مستواه الراهن.

وحينئذ، فاضطراب الواعية المسلمة حتى لدى الإنسان الشعبي، ليس إلا نتيجة مباشرة في قليل أو كثير لذلك الفاضل الذي نستبين منه أن التطور الصياغي الراهن للعالم قد زاد ولم ينقص من تخلف المجتمع الإسلامي بالنسبة إلى الإيقاع العام؛ لأن الذي تهمنا مقارنته هنا ليس الوضعية الراهنة للعالم الإسلامي بالنسبة إلى وضعيته التي

كان عليها حوالي سنة 1913م، ولكان بالنسبة إلى الوضعية العامة التي تنتظم عالم اليوم.

ومن هنا نلاحظ أن مفعول هذا التخلف قد تفشى فعليًا في الواعية المسلمة منذ ربع قرن.

فهناك احتدام مَأْساويّ لهذا التخلف الذي ندرك نتيجته في أشكال مختلفة للحياة الإسلامية الحالية.

وبطبيعة الحال فهذه الأشكال غالبًا ما تكون متناقضة ومتقابلة.

ولنراقب إذا أردنا ردّ فعل المتفرجين من المسلمين بإحدى قاعات (السينما) في موقف من مواقف فيلم أجنبي؛ إننا نرى متفرجًا يضحك والآخر يبكي من الانفعال.

وأنا أتخذ (الفيلم) الأجنبي وليس العربي كمعيار لأنه يتيح لنا بطريقة أفضل التمييز بين تباين استجابات المتفرجين المسلمين بالنسبة إلى (عالم الأفكار) الذي نحن بصدده.

وعلى صعيد آخر، وعلى مستوى أرقى إن صح التعبير، نرى حركة نشر وصحافة رائدة تقف في صف كل المبتكرات- كالشوال أو غيره- معتقدة أنها تخدم بذلك تجدد البلاد، أو هي تقف في صف كل الحريات، معتقدة أنها تسهم في تحرير الأمة؛ وكان من الطبيعي أن نرى في نفس الوقت انبثاق حركة (أدب اجتماعي) تواجه كل عنوان من عناوين المنشورات السالفة بعنوان مضاد، مثل: (العدالة الاجتماعية في الإسلام)؛ و (الملكية في الإسلام)!

فالتقاطب المزدوج الذي أشرنا إليه فيما مضى، ونحن بصدد النفسية الإسلامية- ملاحظين لما هو واقع من عدم الترابط العضوي بين عالم

(الأشياء) وعالم (الأفكار) - يترجم هنا بعقلية مزدوجة كذلك، فالإنسان الذي يضحك في (السينما) يمثل (مناظرًا) للإنسان الذي يبكي.

والإنسان الذي يكتب- بين السطور على الأقل- أن الإسلام أصبح شيئًا فات أوانه، ويتعين استبداله بما يحل محله، يمثل مواجهًا للإنسان الذى ينادي بالعودة إلى إسلام اجتماعي بوصفه الوسيلة الوحيدة للنجاة.

إنها قطبان متقابلان في حياة المجتمع الإسلامي الراهن: الفكرية والعاطفية.

وكل هذا النشاز، وكل هذا (اللاتناغم) من شأنهما أن يضيفا مفعولهما النفسي للاضطراب الأخلاقي السائد في هذا المجتمع.

وإذا كنا رأينا شابًا مسلمًا ينفلت ببساطة من الأرض وتبعاتها.

بمثل ذلك الجواب الذي ردّ به سنة 1912م على الضابط الفرنسي أرنست بسيكاري فإننا نستطيع أن نرى في يومنا هذا أحد كبار المسؤولين الإداريين المسلمين مثلًا، ينفلت من الإسلام بحجة أن الدين قد أدى مهمته الاجتماعية، وأنه يجب أن يدع مكانه من هنا فصاعدًا في هذه المهمة إلى العلوم الاجتماعية!

لندعْ هذا الشخص لشروده.. فالذي تهمنا معرفته آنئذ، هو أن الظاهرة الاجتماعية التي يترجمها بطريقته ومنطقه الخاص، يجب أن تترجم بشكل أو بآخر في الواعية الإسلامية ذاتها..

6 - تكوين الفكرة:

إن الاعتبارات التي قدّمناها في الفقرات السالفة، تترجم بكل طريقة عن أزمة النموّ، التي يجتازها العالم الإسلامي منذ أن استيقظ وعيه.

وهـي اعتبـارات تكـوّن في جملتهـا المظهـر المـرَضيّ، لمـا تعـورف عليـه (بالنهضـة)؛ فالأزمـة نتيجـة لهـذه النهضـة.

ونحـن نسـتطيع أن نبـوب عناصرها حسـب طبيعتها الاجتماعية والنفسـية، كما سـلف أن قدَّمنـا؛ فالتأخر في المجـال الاجتماعي، وفي الـشروط الراهنة لتطور العـالم العـام، يُترجم باضطـراب في المجـال الأخلاقي؛ وهذا الاضطـراب يُترجم بدوره في سـلوك الأفـراد؛ فهو في المسـتويات المختلفة للسُّـلَّم الاجتماعي يُترجم: إمَّـا بوَهَـنٍ في الرَّأي أو بالسُّـخط والتطرف في وجهات النظـر؛ ولا أحبّ أن أذكر حـالات تمثـل للشـقّ الأخـير، لأن مـن بينهـا ما هـو مضـنٍ بدرجة غـير محتملة، حتـى ليـؤول الأمـر ببعض الأفراد مـن هذا الصنـف، إلى الارتداد عن الإسـلام، واعتناق المسـيحية بدافع مـن اضطرابهم!

وإني لأعـرف مـن بينهـم عـلى الأقـل حالـة في مراكـش، وأكثر مـن حالة في الجزائـر، ويتعَّـين عـليّ أن أقـول: إن هـؤلاء المرتدّيـن، يكونـون أحيانًـا من صفـوة الناس..

ولكنـي أحـب أن أذكـر مـن بين الصنـف الثـاني نموذجـين، لأن حالتهما عـلى وجـه الدقة، هـي التي أوحـت إليّ إجمـالًا بموضـوع هذه الدراسـة.

لقـد ذهبـت لزيـارة مسـلم، كنـت أقـدر فيـه صفتـه ومجهـوده الفكـري البـارز، وكنـت لا أعرفـه إلا عـن طريـق مؤلفاتـه؛ وعندمـا دخلـت عليـه، وجـدتُ فيـه رجـلًا يبعـثُ عـلى الارتيـاح، وربـما تكـون طلعتـي قـد حظيت بارتياحـه هـو الآخر!

فقـد انسـجم معـي في تجـاوب سريع؛ وكنـت أنتظـر منـه أن يحدثني عـن عملـه، وإذا بـه يحدثنـي عـن حالتـه الروحيـة: «إنني أعمـل واليأس يمـلأ قلبي»!

واليأس ربما يكون أفضل من الكفران والارتداد، ولكنه ليس بمبادرة صحة أخلاقية في مجتمع معين على أية حال!

أما المثقف المسلم الثاني، فقد سعى إليَّ بنفسه في هذه المرة.

وكان. طبيبًا استدعيته لعلاجي من مرض ألمَّ بساقي؛ ولكن سرعان ما فهمت أنه يتعين عليَّ أن أحاول أنا نفسي علاج رأسه وقلبه اللذين يملؤهما التشاؤم فيما بدا لي.

قال لي وهو يتنهد بحسرة: «أحب أن أصارحك بأني لا أجد لدى المسلمين أي شيء في مكانه الذي يجب أن يكون فيه».

وهذا النوع من التفكير. وذلك التنهد المتحسر. ينبئاننا عن الكثير فيما يتعلق بالحالة الروحية التي عليها زائري الذي لا يشكو أيَّ خصاصة من الناحية المادية.. وهاتان الزيارتان- الزيارة التي قمت بها. والزيارة التي قام بها غيري إليَّ- تركتا فيَّ تأثيرًا عميقا.

لأن ما تبدى لي منهما قد ذكرني بحالتين أخريين وَصلتُ من مقارنتهما إلى نتائج محسوسة.

والحاصل أن هذه المقارنة قد تمت آليًا في مخيلتي، حتى لقد تخلت عني أوجاع ساقي بمجرد سماعي لكلمات الطبيب الذي استقدمته لعلاجي!

فقد تعرفت في باريس- أثناء المدة الواقعة بين سنة 1934م وسنة 1935م- إلى طالب صيني كان زميلًا لي في الدراسة، وقد ربطت بيننا صداقة متينة، لأن كل واحد منا يعيش مأساةَ الإنسان المستعمَر بطريقته الخاصة.

ونحن نذكر أن (الإمبريالية) اليابانية كانت طوال تلك المدة تتدفق على القارة الصينية بغية اسْتِنْحَاتِ مملكة استعمارية.

وكان صديقي شديد التأثر لذلك، مما يزيد في التهاب أحاسيسه الوطنية، وكنا نتبادل بطبيعة الحال أحاسيسنا تلك فيما بيننا.

إلا أنني لم أكن لأعرف كيف كانت نظرته إليَّ كمناضل جزائري في ذلك الحين؛ ولكنني أذكر جيدًا كيف كانت نظرتي بالنسبة إليه كمناضل صيني؛ فقد كنت متأكدًا أنه مستعد لبذل حياته في سبيل خلاص بلاده.

ووراء هذا العزم الذي طالما رأيته يلتمع في عينيه كالوميض البارق، كنت أستبين كذلك قرارة من التشاؤم واليأس: لقد كنت أستشعرني إزاء إنسان حائر. إنسان مطارَد..

وعلاوة على ذلك فهو لم يدع لي في هذا الصدد أيَّ مجال للريب: ففي كل مرة يريد أن يتحدث إلي فيها عن السياسة، كان يأخذني جانبًا، بعيدًا عن كل أذن مطاردة؛ بل إنه كان يقتادني معه أحيانًا حذو (البنثيون Panthéon) أو (مقبرة العظماء)، مبالغة منه في الحذر.

أعني بطريقة لا يتاح معها لأي طفيلي أن يقتنص ما يدور بيننا، من غير أن نشاهده مقبلًا عن بعد في هذا الميدان البراح.

والمؤكد أن الفكرة التي يكونها عن الوضعية الاجتماعية والسياسية في بلاده، هي التي يترجمها سلوكه بهذه الطريقة: إنه إنسان مطارد، لأن الوضع الاجتماعي والسياسي في الصين كان على مدى من السوء اقتضى منه هذا السلوك.

وبعد عشرين سنة من هذا التاريخ، أتيح لي أن ألتقي بشاب صيني آخر، أعني بعد تحرير الصين.

ولقد كان هذا الشاب أقل ثقافة من صديقي ولا شك، وأقل منه اندفاعًا كذلك.

ولكـن أيّ تماسـك في موقفـه! لقـد كان يصغـرني بمراحـل، ولكنـه كان يتفـرس فيّ ويتفحصنـي، يستشـفني ويدرسـني.

وبتذكـري لصديقـي القديـم، فهمـت أن الثـورة قـد قامـت بتبديـل للشـخصية الصينيـة: لقـد هيمـن مخاطبـي عـلى الصعوبـات الداخليـة، التـي كانـت تضفـي فيـما سـلف عـلى صديقـي القديـم مَيْسَـم الإنسـان المطـارد!

ولقـد سـيطر الشـاب الصينـي، عـلى هـذه الصعوبـات القائمـة في عالمـه الداخـلي، وهـو الآن -ونظرتـه إليّ توضـح لي ذلـك- يسـعى للسـيطرة عـلى صعوبـات عالمـه الخارجـي.

وإننـا لنتسـاءل: كيـف تـمّ التحـول في الشـخصية الصينيـة؟ المؤكـد أن الثـورة لم تـأت بالحـل لـكل المشـاكل القائمـة في الصـين بطرقـة مـن عصًـا سـحرية؛ فعـدد المشـاكل وطبيعتها لمـا ينقصا بعـد إلى حد يسـمح بميلاد (عالم خارجـي) يسـتطيع فيه الجيـل الصيني الناشـئ التمكّـن من الراحة والشـعور بالتماسـك، إلا أن هـذا الجيـل يجـد أسـباب تلـك الراحـة في ذاتـه هـو، أي في (عالمـه الداخـلي)، فالثـورة الصينية لم تحذف المشـاكل، ولكنهـا حورت موقف الفـرد بالنسـبة إليهـا من أساسـه.

وصديقـي القديـم كان يـرى تلـك المشـاكل، ولكنـه لم يكـن لـيرى أي طريـق يـؤدي إلى حلولهـا.

بينـما الشـاب الصينـي المعنيّ يـرى هذه الحلـول بعيـدة الأوان في قليل أو كثـير، هـذا هو الـذي تبـدل بالفعل وإنه لأسـاسي بالنسـبة إلى مجتمـع معين.

والآن، لـو أنني انتقلـت بهذه الاعتبـارات على الصعيد النفـسي لمخاطبَيّ المسـلمين السـالفي الذكـر، لوجـدت أن مشـاكل المجتمـع الإسـلامي، في طبيعتهـا وعددهـا، ليسـت هـي التـي دفعتهـما إلى عدم الأمـن والقـرار الذي

هما عليه، ولكنه واقع عدم عثورها على حلول تلك المشاكل والطريق المؤدية إلى تلك الحلول.

إن (عالمها الداخلي) هو الذي يتضمن العلة أكثر مما هو (عالمها الخارجي).

ومخاطباي المسلمان في حاجة إلى شيء معين يبدل من موقفهما بالنسبة إلى المشاكل، وهذا الشيء المعين لا تعطيه غير إرادة جماعية ونزعة غيبية معينة كما سلف أن أعطته الثورة لست مئة مليون صيني.

ومن هنا فحسب تنبثق فكرة (كمنويلث إسلامي) بصورة تلقائية، أعني من طبيعة المشاكل ذاتها، تلك التي يواجهها المجتمع الإسلامي الراهن.

ولسوف نمد هذه الفكرة بتبريرات أخرى- علاوة على ما قدمنا- في الفقرات التالية.

ب - مشروع دراسة مكتملة:

1 - تبرير عام:

إننا بتحليلنا في الفصل السالف، للوضعية السائدة في العالم الإسلامي، قد أكدنا كيف اتسَمت هذه الوضعية في أساسها بالتخلف الاجتماعي للإنسان المسلم، بالنسبة إلى تطور العالم العام.

وجدير بنا الآن أن نركز الانتباه حول العوامل - أو بعضها على الأقل- التي تؤثر على تلك الوضعية بوصفها عوامل مسرِّعة أو معجِّلة للتطور العالمي، وبالتالي نزَّاعة إلى المضاعفة من تخلف المجتمع الإسلامي، ورامية كذلك إلى تعضيد العناصر ذات الصبغة النفسية والاجتماعية التي تكوِّن معطيات المشكلة ومظاهر الأزمة التي سبق أن حللناها.

وكما سلف أن بينا ذلك، فهذه الأزمة ليست في طبيعة مشاكل المجتمع الإسلامي، بقدر ما هي في موقف الإنسان المسلم بالنسبة إلى هذه المشاكل.

ولكن إذا كانت طبيعة المشاكل في التقدير الأوَّلي للحلول التي توضع عليها، تقع في الدرجة الثانية، فإن مستوى هذه المشاكل يأتي على العكس من ذلك في الدرجة الأولى، ولذلك يتعيّن اعتبار المساحة الجغرافية للمشاكل التي نريد دراستها، فهناك مشاكل ذات صبغة قومية فحسب ينبغي أن تجد حلولها في البلاد نفسها التي تثار فيها.

ففي القاهرة والخرطوم وليس في غيرها يجب أن تجد مسألة مياه النيل حلها وإن كان يمكن أن ينْضمَّ النيل إلى اقتصاد منطقة أخرى معينة، كما أشرت إلى ذلك على سبيل المثال في كتابي (فكرة الأفريقية الآسيوية)

(L'Afro-asiatique)، وكيف أن العربية السعودية نفسها يمكنها أن تساهم في بناء مثل هذا الاقتصاد الإقليمي.

ولكن هناك مشاكل أخرى توضع في (الرباط Rabat) مثلًا إلا أنها لا يمكن أن تجد حلها في نطاق مراكش وحدها لأن التاريخ قد حدد من طبيعتها، والتطور العام قد حدد مستواها بطريقة لا يمكن معها لتلك المشاكل أن تحسم إلا بحل عام يمكن تطبيقه في الرباط وجاكرتا معًا، أعني في مساحة معينة.

2 - أسباب جغرافية سياسية:

والمتبقي هو أن هذه الاعتبارات قد أصبحت مُعَضَّدة بالاتجاه العام للتاريخ المعاصر.

فهناك في نهاية الأمر مظهر جديد في التطور الراهن للعالم.

فالعامل الفني الذي ترتب عليه، في مجرى النصف الأخير من القرن العشرين، تمركز القوة على محور واشنطن- موسكو، ترتب عليه من جراء هذا الحدث نفسه نتيجة أخرى ذات صبغة جغرافية- سياسية، فهذه القوة المركزية تحدد بدورها ظاهرة معينة، إذ هي قد أبرزت إلى حيز الوجود، المساحة المخططة، حيث يمكن أن يكون الاقتصاد منغلقًا على ذاته بقصد غايات استراتيجية.

وبطبيعة الحال، فهذه الظاهرة لا تحدد مساحة مفردة، ولكن (مساحات مخططة) عديدة؛ وهي المساحات الكبرى التي تتطابق مع وحدات جغرافية- سياسية تواقة إلى البقاء في دائرة مغلقة، أو هي تكتمل على الأقل في هذا الاتجاه، وحيث تمركزت القوة أو هي بصدد الاتجاه إلى هذا التمركز.

فكتلة الحلف الأطلنطي والاتحاد السوفييتي والصين الشعبية والاتحاد الهندي؛ تمثل كلها نماذج مختلفة ومتفاوتة الاكتمال لهذه (المساحات المخططة) التي تمركزت فيها القوة أو هي في طريقها إلى هذا التمركز.

والمؤكد أن المشاكل في هذه المساحات، حتى ولو لم تتغير من حيث طبيعتها في قليل أو كثير، فإنها مع ذلك مسوقة إلى مستوى أكبر، وهي تتخذ من جراء هذا الحدث نفسه مظاهر فنية معينة يهيمن عليها قانون الأعداد.

على أن تلك الوحدات ليست مجزَّأة داخليًا بالطريقة نفسها ما دامت هذه (الفِقَر) - إن صح التعبير- متفاوتة في مرونتها، مضافًا إلى ذلك أن طابعها السياسي لا يهمنا، ولكن الذي يهمنا هو المظهر الفني والنفسي للمشاكل الجديدة التي يضعها وجودها الموطَّد في قليل أو كثير، على محور من القوة، وهي المشاكل التي تتصل بمساحات جغرافية كبيرة وكتل بشرية ضخمة.

3 - أسباب نفسية:

ومهما يكن من شيء فإن الذي يهمنا اعتباره هو كيف كان ردّ الإنسان المسلم، في عالم مخطط راضخ للعامل الفني، ولعامل القوة اللذين يَسِمانِ تطور كتلة بشرية لا يستهان بها بطابع الحركة المعجَّلة، ويعطيان لمشاكل هذه الكتلة مستوى غير مألوف، تصوره لنا أحيانًا أرقام قياسية عجيبة، مثل المئة والخمسين ألف طن من الصراصير- إذا لم تخطئ ذاكرتي- التي وقعت إبادتها في الصين الشعبية أثناء المدة التي استغرقها مشروع الخمس سنوات الأولى هناك.

وحينئذٍ فالإنسان المسلم يستشعر أحيانًا في هذا العالم المخطط عدم جدواه، من حيث استشعاره لما هو واقع من أن التاريخ يصنع بدونه.

فهو بوصفه عنصرًا من عالم غير مخطط، يرى نفسه مجتازًا من طرف التطور المسرَّع لبقية البشرية.

والآن لو استبطن الإنسان المسلم هذه المعطيات- وهو أمر من الطبيعي أن يفعله، بقدر ما يسترد وعيه وينتبه لدى تخلفه- فسيتاح لنا أن نفهم عنه، أنه سيأخذ بعين الاعتبار في هذا المستوى، أن العالم الإسلامي الذي ينتمي إليه، يحمل جما طواياه بذور ثورة.

ومنذ هذا الحين يجتذبه سؤال في صورة (متحارجة dilemme):

أولًا- هل يستطيع العالم الإسلامي إنجاز ثورته حسب اطراد محدد منسق بمشروع مُعَدّ يؤخذ فيه اعتبار العناصر النفسية والعوامل الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الإسلامي الراهن.

ثانيًا- أو أن العالم الإسلامي سيجد نفسه منقادًا- لعدم توافر توجيه سديد، حسب مشروع معَد وبضرورات تكفيه مع تطور عالمي، لم ينفك في إسراع دائب، يتزايد يومًا فيومًا- إلى ثورة لا يكون مسيطرًا عليها؟ وفي هذا السؤال يتمثل طرفا (المتحارجة) أو (المأزق)! ومن هنا تبدو ضرورة وضع تخطيط للعالم الإسلامي، أولًا وبالذات في المجال الأخلاقي: إذ يتعين التخفيف عن الواعية الإسلامية من ثقل الأحاسيس السلبية، التي تعبر عن ذاتها من خلال كلمات ذلك الشاب (الموريتاني)، وفي كلمات المثقفين التي سلف لنا ذكرها فيما مضى.

4 - المظهر الفني:

لقد ذكرنا ما يكفي من البيانات عن طبيعة المشكلة وعن مستواها، فهي مشكلة العالم الإسلامي، أي مشكلة مساحة منحصرة بطريقة متحادَّة بين خطَّيْ طول (طنجة وجاكرتا)، وبين خطَّيْ عرض: (مدينة الجزائر ودار السلام) وهذه البيانات، ليست في حدّ ذاتها إلا المعطيات الأوّلية.

ولكننا بمجرد ما نتناول المشكلة في مظهرها الفني، الذي هو مظهر التنفيذ، تتبدى لنا معطيات أكثر تعقيدًا.

فالواقع أننا نوجد؛ ليس بإزاء عالم إسلامي واحد، ولكن بإزاء عوالم إسلامية عديدة:

أ - العالم الإسلامي الأسود أو الأفريقي.

ب - والعالم الإسلامي العربي.

جـ - والعالم الإسلامي الإيراني: (فارس وأفغانستان وباكستان).

د - والعالم الإسلامي الماليزي: (أندونيسيا والملايو).

هـ - والعالم الإسلامي (الصيني- المنغولي).

وإذن فهناك مجال لتحديد (مبدأ مكامل) يُتطلَّب منه أن يعبر أساسيًا عن وحدة المشكلة من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يأخذ بعين الاعتبار ذلك التعدُّد الذي يتعين أن يترجم عن تعقيدها.

وعلى هذا فتخطيط العالم الإسلامي، يجب أن يبدأ بالضرورة من عملية (مكاملة) من ناحية، ومن عملية تبويب من ناحية أخرى؛ والمظهر الفني يعانق هاتين العمليتين.

وإذا كانت العملية الأولى، يمكن أن تبدو لنا على نحو معين من السهولة- بالرغم مما يضفيه عليها العنصر الشيعي من التعقيد- فإن العملية الثانية المتعلقة بالتبويب المتطلب تحديده بين (العوالم الإسلامية)، ستكون أكثر تعقيدًا بمراحل.

وإذن فإننا إذا ما تناولنا موضوع (كمنويلث إسلامي) باعتباره مجرد موضوع للدراسة، المقصود منه معرفة أكثر بالعالم الإسلامي، أو بغية وضع تصميم لهذا العالم، يتعين علينا بالضرورة أن نأخذ بعين الاعتبار عددًا معينًا من المعطيات العضوية والضرورات المنطقية.

ومـن بـين هـذه المعطيـات يـأتي (المبـدأ المكامـل) في الاعتبـار الأول، إذ لا جـدال في أن العالم الإسـلامي قد احتفـظ- بالرغم من تقلبـات تاريخية- بوحدة روحيـة، تكـون عامـلًا أساسـيًا مـن الوجهة النفسـية في تماسـك المـشروع، ومن الوجهـة الفنيـة في التوفيـق بـين عناصره، وعـلاوة على ذلـك، فإن هـذه الوحدة لا تسـتطيع أن تقـوم فعَّاليًـا بدورها (المكامل) إلا إذا تجسـمت في صـورة موائمة تمثـل بشـكل إنشـائي إرادة العـالم الإسـلامي الجماعيـة، ومنذئـذ تتعـين مراجعة النظـر في مشـكلة (الْخِلافَـة) على ضـوء المعطيـات الراهنة للعالم الإسـلامي.

وربـما اسـتطاع فقهـاء القانون تحديـد (الإمامـة) تحديدًا جديـدًا، لا يُغفل فيـه مـا يحملـه اليـوم المفهـوم الإسـلامي لكلمـة (أمـة) مـن تنوع، مـن حيث السياسـة والجغرافيـا والجنس.

ويبـدو أن هـذا المفهـوم نفسـه قـد أخـذ يتقلـص في الواعية المسـلمة، كما تشـهد بذلك بعـض المظاهر المعينة، فقـد تواصلت (الهجرة) إلى بقاع الإسـلام المقدسـة- وإلى (المدينـة) بالخصـوص- مـن طـرف الأجيـال الإسـلامية منـذ ثلاثـة عـشر قرنًـا؛ ولكـن (حـق الهجـرة) يكـون اليـوم موضوعًـا لتقييـدات معينـة من طرف السـلطة السـعودية العامـة، ولاحتجاجات معينـة من طرف بعـض سـكان (المدينة) أنفسـهم، مـن أولئك المهتمـين بمراعاة مصالـح مادية مشروعـة على أيـة حال.

وأخـيرًا فهنـاك مجـال- كما سـلف أن ذكرنـا- لاعتبار بعـض الضرورات المنطقيـة المعينـة، فالكومنويلـث الإسـلامي، لكـي ينظـم نفسـه في علاقتـه الوظيفيَّـة بمعطيـات تطـوره الخـاص، وبـضرورات تكيفـه مـع تطـور عـالم مخطـط، يمكـن أن يُعـرَّفَ (كاتحـاد فدرالي) بـين (العوالم الإسـلامية) يترأسـه مؤتمـر إسـلامي، يقـوم بـدور الهيئـة المنفـذة لهـذا الاتحاد.

وعلاوة على ذلك فإن التقسيمات الفدرالية يجب أن تتلاقى مع الاتجاهات الطبيعية للتطور التاريخي والاقتصادي والسياسي.

فهناك مثلًا من وجهة النظر الاقتصادية منطقة طبيعية تتمثل في مصر والسودان، ومن وجهة النظر السياسية منطقة عربية تمثل الجمهورية العربية المتحدة إحدى بوادرها.

5 - اعتبارات عامة:

لقد رسمنا في الفقرات الأربع السالفة، الخطوط الكبرى لدراسة عن الكومنويلث الإسلامي، من وجهة نظر تصميميَّة.

ولا بد أن يكون القارئ قد فهم أن هذه الدراسة لا يمكن أن يقوم بها شخص واحد، كما لا يمكن أن تتمَّ في موضع واحد، ولا في شهر واحد!

فنحن مثلًا، عندما نقسم العالم الإسلامي إلى قطاعات خمسة: تمثل ما أطلقنا عليه (العوالم الإسلامية)، نكون كأننا قد أشرنا بهذا التقسيم نفسه، إلى الفصول الخمسة لعمل يقتضي مجهودات مديدة ومتواصلة، لا يمكن أن تتمَّ إجراءاته في مكتب معين، ولكن في مجال القضية نفسها، من طرف هيئة من العاملين الممتازين.

وحتى لو فرضنا أن هذا التقسيم لميدان القضية وللعمل الذي يقتضيه، صحيح في مبدئه- والواقع أنه يجب أن نضيف إلى تقسيمنا: (العالمَ الإسلامي الأوروبي) - فليس العمل بالسهل رغم ذلك..

لأن التحقيق في هذه القطاعات الخمسة أو الستة، يجب أن يجري في الداخل وعلى محيطها معًا.

ففي الداخل يتناول التحقيق موضوع العناصر العضويَّة الخاصة (بالعالم المكتشَف)، العناصر التي تكوِّن (هويَّته) وأصالته الخاصة.

وعلى المحيط يتناول التحقيق موضوع العناصر النفسية، والقرابات التي يمكنها أن تضم (العالم) المشار إليه إلى (العوالم الإسلامية) الأخرى، تحت المبدأ نفسه (المكامل)، وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا التحقيق لا يمكن أن يقع ابتداء من المحيط إلى الداخل، ولكن من الداخل إلى المحيط.

أو هو لا يتعين أن يقع ابتداء من (نقطة إشعاع)، ولكن يجب أن ينتهي إلى (نقطة التقاء).

والنزوع إلى الاتصال، يجب أن يأتي من الداخل متجهًا صوب (نقطة الالتقاء) هذه ة فإن الاتصال لا يمكن أن يفرض من الخارج.

ونحن نستطيع تقديم هذه الاعتبارات في شكل تخطيطَيْن، يمكننا أن نتعرَّف من خلالهما- بصورة مشاهدة على نحو من الأنحاء- إلى ما لأحدهما من مميزات تبرر توجيهنا النظر إليه، كمنهج يفضل اتباعه، وما للآخر من عوارض يكون معها من السداد تجنبه، لأن اتباعه يؤدي إلى متناقضات معينة.

أ - تخطيط يتعين تجنبه:

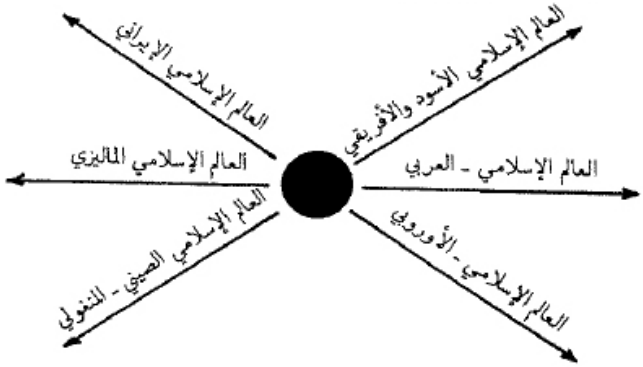

ففي هذا التخطيط، تشع فكرة كمنويلث إسلامي، من نقطة مركزية؛ والاتصال يقع من الخارج إلى الداخل.

وقد كان هذا التخطيط ذا قيمة منذ ثلاثة عشر قرنًا مضت، لأنه يمثل على وجه الدقة: المجرى الذي اتبعه إشعاع الفكرة الإسلامية الذي كتب له أن يبدأ انطلاقه من نقطة مركزية هي (مكة) على وجه التحديد.

ولم يكن لهذا الإشعاع في ذلك الحين، أن يقع بطريقة غير الطريقة التي سار عليها، وذلك لما فرضته عليه الشروط التاريخية من اتجاه محدد.

أما اليوم فإن هذا التخطيط- على العكس من ذلك- لم يعد ذا قيمة لأسباب عديدة، لعل أهمها هو ما يمكن أن تؤوَّل به (النقطة المركزية) التي تشع منها الفكرة في المجال السياسي، باعتبارها (إرادة خاصة) تسعى إلى فرض هذه الفكرة على غيرها.

ولنكن على يقين من أنه سيوجد حينئذ في العالم، ما لا يستهان به من المصالح الغريبة عن العالم الإسلامي، التي ستتولى تأويل الفكرة على هذا النحو طواعية ومن غير ما تحرج، علاوة على ما يوجد في هذا التخطيط من عوارض أخرى تتعلق بالمنهج وبتسهيل العمل.. وإذن فهو تخطيط يتعين تجنبه.

ب - التخطيط الصحيح:

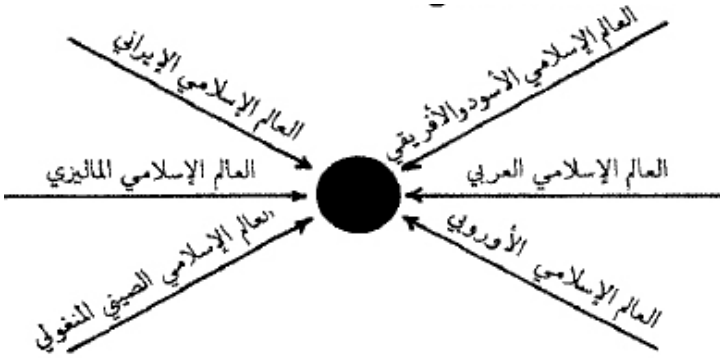

في هذا التخطيط تلاقينا عوارض التخطيط السالف، أولًا فيما يتعلق بالنقطة المركزية التي لا يمكن تأويلها هنا باعتبارها (إرادة خاصة)، وهو على نقيض سالفه، بتمثيله لنقطة التقاء خمس بوادر أو ستة في نظر الإنسان المسلم وغير المسلم سيان، سيكون من جراء هذا الاعتبار ذاته: التعبير الأكثر حقيقية عن (الإرادة الجماعية) الإسلامية.

فهو يحقق إذن، وبطريقة مسبقة في شكله المحسوس، هذه الإرادة الجماعية مانحًا للمبدأ المكامل الذي سبق أن تحدثنا عنه كل فعاليته منذ البداية، حاثًا من جراء هذا الاعتبار ذاته عملية التكامل، وهذا أساسي للغاية.

وإذن فنحن بتوزيعنا العمل على لجان محلية مكلفة بدراسة المشروع، نكون قد كونا بهذا التوزيع نفسه وبطريقة مباشرة، التدشين الرمزي للكمنويلث الإسلامي، وكأننا قمنا بما يشبه وضع الحجر الأساسي في البناية.

أما العمل الدراسي لهذه اللجان، الذي يبدأ من الداخل إلى المحيط كما قلنا، فسيكون- مهما تكن مدته- العمل التكويني، إذ يكون الكمنويلث الإسلامي قد ولد من خلاله في (عالم الأفكار)، ولم يتبق غير دخوله في

عـالم الوقائـع التاريخيـة، ولسـوف يدخله عمـل تلك اللجـان بطريقـة مطردة في هـذا المجـال الأخـير، لأن مواصلـة هذا العمـل ذاتـه تحتم بينهـما مبادلات تربطهـا ضروريًا (بقاعـدة مجمَّعة) أو (جهـاز مركزي)، وهـذا الجهاز، بوصله لتلـك اللجـان فيـما بينها، سـيكوِّن تيار التفكير الإسـلامي، وبما أنه هـذا التيار عـلى وجـه الدقة، هـو الهـدف الرئيسي الـذي خلقت هـذه اللجان مـن أجله، فإنهـا سـوف تكـون قـد بلغـت هدفها عـلى نحو مـن الأنحـاء، قبـل إنجازها لعملهـا ذاتـه، لأن هـذا العمـل نفسـه- ككل الأعـمال التـي تتعلـق بالمجـال البـشري- هـو في الوقـت ذاتـه ذو صبغة فنيـة وأخـرى (رمزية).

والرمـز في حـد ذاته، ليس إلا عمليـة خلق، لأنه (يقاطـب) بين الطاقات البشريـة ويرغمها على الالتقـاء في نقطة معينة.

وإن عمليـة الخلـق لتتـم أحيانًا قبـل دخولها في المجـال الفنـي، أعني قبل أن تترجـم في أرقـام ووقائع.

إن بـذرة الحيـاة، ليسـت سـوى مجـرد رمـز في اللحظـة التـي تضعهـا (العنايـة) في رحـم أمّ مـن الأمهـات، مـا هـو وزنهـا؟ لا شيء أو كالـلاشيء، ومـع ذلـك فإن مثل هـذه البذور قـد أنتـج الأنبيـاء والعبقريات الكبـيرة التي وجهـت الحيـاة عـلى صعيـد هـذه الأرض؛ وإذا مـا اجتمـع بعض الأفـراد في خمـس لجان أو سـتة، لدراسـة فكرة كمنويلث إسـلامي، فـإن اجتماعهم يمكن أن يبـدوَ وكأنـه لا معنـى له!

ومع ذلك فإن عالمًا كاملًا يمكن أن ينشأ عن هذا الالتقاء.

القسم الثاني:
قيمة (الفكرة)
في المجتمع الإسلامي

أ - (الفكرة) في المجتمع الإسلامي:

1 - ضعف أساسنا المفاهيمي:

إن أمام تنفيذ المشروع الذي سلف أن أشرنا إلى خطوطه العامة، بعض المصاعب التي تقوم في مجالين اثنين:

أ – فهي تعزى إلى التطور التاريخي للعالم الإسلامي، أعني إلى منشآته.

ب – كما أنها من ناحية أخرى، ناتجة عن تطوره النفسي، أعني عن أفكاره.

ويكفي فيما يتعلق بالنقطة الأولى أن نذكر بما سلف من أن كثيرًا من الأشياء المتفسِّخة في العالم الإسلامي قد تلاشت بالموت.

وأن الكثير من الأشياء الضرورية لما يولد بعد.

والذي يترتب على هذا أن المنشآت في هذا العالم: إما أن تكون قد أصبحت لاغية، وإما أنها لما تتكيف بعدُ مع أوضاع العالم الإسلامي الراهنة.

فمصر هي البلاد الإسلامية الوحيدة فيما أعرف، التي تهتم بإنجاز منشآت جديدة ضرورية لحياتها الداخلية ولاتصالها بالخارج.

أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية فإن الأشياء تبدو أكثر تعقيدًا، وذات أهمية أكثر جسامة معًا، فنحن إذ قمنا فيما سلف بالمقارنة بين تطور اليابان الحديثة وتطور الشعوب الإسلامية منذ قرن من الزمان، قلنا إن هذه الشعوب قد دخلت (عالم الأشياء)، وأنها لَمّا تدخل بعدُ في (عالم الأفكار) كلية.

كما ذكرنا أيضًا- مستعيرين للغة (علم نفس الطفل) - أن هذه المرحلة تمثل الطور (ما قبل الاجتماعي) الذي يكتشف فيه الطفل عالم الأشياء، وإن كان لا يزال على جهل (بعالم الأفكار).

ويمكننا أن (نُسْقِطَ) هذا الاعتبار على المظاهر المختلفة للحياة الإسلامية لنستخلص منها النتيجة المطابقة لها.

فنحن لو أسقطنا ذلك الاعتبار مثلًا على التطور الاقتصادي للعالم الإسلامي، منذ قرن من الزمان، نلاحظ أن هذا التطور باكتماله في اتجاه (الأشياء)، قد أنتج- ويلزم أن ينتج- (إعوازًا) زاد من حاجات هذا العالم، من غير أن يزيد في وسائله.

وإذا ما أسقطناه على التطور الفكري، فهمنا السبب في أن هذا التطور عندما يتحول لدى المثقف المسلم إلى شكل من أشكال المادية، يكون قد اتجه نحو الشكل المحدَّد (بالأشياء) لا نحو الشكل المحدِّد (بالأفكار).

وكذلك الأمر فيما لو أسقطناه على التطور الاجتماعي بصفة عامة، فإننا نفهم أن هذا التطور يتجه صوب ذلك الشكل من أشكال الحضارة الذي أدعوه (بالحضارة الشيئية)!

ويمكننا أن نسقط ذلك الاعتبار أيضًا على الاتجاه الجمالي أو السياسي، ويستخلص نتائج بالغة الأهمية..

إلا أننا نريد إسقاطه بطريقة أخص، على التصميم المفاهيمي، أعني على حياة الأفكار ذاتها ومدى فعاليتها في العالم الإسلامي.

فالمؤكد أن الالتقاء لَمّا يَتِمَّ بَعْدُ كلية بالنسبة إلينا بين عالم الأفكار وعالم الأشياء؛ ومن جراء هذا ظلت الفكرة معزولة ومحايدة، وكأنها العَزْلى من سلاحها بفَقْدها لفعَّاليتها.

وإذا ما أراد القارئ تكوين فكرة شخصية في هذا الصدد، فليقم بتجربة صغيرة يُرْضِخُ فيها محيطه لمعيار موائم.

فقد كررت أنا نفسي تجربتي في كل الصور بالجزائر منذ ربع قرن.

وإنني لأستطيع تأليف كتاب كامل في هذا الموضوع؛ ولكني أفضل أن يقوم القارئ بتجربته الشخصية بنفسه.

حاولوا في أي مناقشة أن توجهوا موضوع النقاش بطريقة منهجية حول (الأفكار)، ولتختاروا على سبيل المثال موضوع المذاهب الاقتصادية أو أي موضوع نفساني.

فإنه لا مَعْدى لكم عن الالتقاء في محيطكم بثلاثة أصناف من الناس: الذين يلزمون الصمت تأدبًا، والذين يتهكمون ملقين فيما بينهم بنظرات ذكية، وكأنهم يقولون من ورائها: يا للمخرف!

وصنف ثالث وهم أكثر القوم خلوص نية: يتثاءبون من السآمة، ثم ينصرفون عنكم إلى الاهتمام بأشياء أكثر جدية كمشكلة (الشوال) مثلًا!

وحتى هذا المدى، فإنكم لا تزالون بعيدين عن مشاهدة كل المزعجات التي يمكن أن تحيق (بأفكاركم).

إلا أنكم على أية حال قد قمتم في هذه الأثناء بملاحظة هامة، تتمثل في إدراككم لمدى ما عليه الفكرة في المجتمع الإسلامي من (لا فعالية) وكأنها العَزْلى من سلاحها..

ولكن المجتمع- وهذا هو الأهم بدرجة لا تُضارَع- يعاني حينئذ نقيض مفعول موقفه: فهو مجتمع فقير الأفكار، في الساعة التي تمثل فيها الأفكار الثَّروة الوحيدة التي يُعوَّل عليها؛ وهو مجتمع أعزل مفاهيميًا أو إيديولوجيًا، في نفس الوقت الذي يتعين فيه أن تُسَوَّى كل المنازعات في

العالم من هنا فصاعدًا لا بالأسلحة، ولكن بالأفكار.

إن (عالم الأفكار) هو الذي يدعم (عالم الأشياء)، العالم الذي لا يقف على قدميه بدون العالم الأول، ولا يمكن أن يقف على قدميه بنفسه إذا ما أطاحت به النوائب.

والمؤكد أن عصرنا، من جراء العامل الفني الذي يُعَجِّل من خطو كل الاطرادات، هو العصر الأخصب والأحفل بالتجارب الاجتماعية البناءة.

فقد رأينا كيف قامت ألمانيا- وهي المستنزفة والمنهكة جهدًا ووسائل سنة 1945 - بنهوض معجز خلال عشر سنوات.

وقد سلف لي أن فسَّرت في دراسة أخرى، هذا النهوض؛ بالإنسان والتراب والوقت، التي تفسر مجتمعة، كل عملية اجتماعية.

ولكننا إذ ندفع هنا بالتحليل إلى أقصى حدوده، من غير أدنى تغيير في المعادلة: ـ[إنسان + تراب + وقت = حضارة]ـ يمكننا، بل يتعين علينا أن نقول: إن الإنسان هو الذي يحدد في النهاية، القيمة الاجتماعية لهذه المعادلة، لأن التراب والوقت لا يقومان- إذا اقتصر عليهما فحسب- بأي تحويل اجتماعي.

ونحن إذا ما تساءلنا إذن: بأي شيء أنهض (الإنسان) الألماني وضعية بلاده أثناء هذا العقد المنصرم من الزمان كأن نكون ملزمين بالجواب عن سؤالنا هذا بطريقة واحدة لا غير، وهي أن أفكاره، وأفكاره فحسب، هي التي أتاحت له أن يحقق ذلك النهوض.

وهذا أمر حقيقي- وحقيقي بصورة لا مجال للريب فيها- سيما وأن حرب 1939 - 1945، قد خرَّبت عمليًا (عالم الأشياء) في ألمانيا؛ بمصانعه، وآلاته، ومناجمه، وبنوكه، ومختبراته؛ فكل هذه (الأشياء)، كانت قد دمرت وأتلفت.

وإذن فقد كانت ألمانيا- على وجه الدقة وبطريقة تكاد تكون رياضية- لا تملك سنة 1945، أي مجموعة من (الأشياء)، ولكن مجموعة من (الأفكار) فحسب.

وهي قد كوَّنت من جديد، وابتداء من هذا (الرَّأسمال) المفاهيمي، كل حياتها الاجتماعية، واحتلت مجدَّدًا مكانتها السياسية في العالم.

إن تجربتها بالنسبة إلينا لا تقدر بثمن، فهي تتيح لنا أن نستخلص بطريقة علمية، أن قيمة مجتمع معين في فترة ما من تاريخه، لا يعبر عنها بمجموعة (الأشياء) في هذا المجتمع، ولكن بمجموعة (أفكاره).

وإذن فما هي قيمة مجتمعنا الآن؟..

مهما يكن من أمر، فإن شيئًا واحدًا هو المؤكد: وهو أن (أساسنا المفاهيمي) ضعيف للغاية، و (عالم أشيائنا) لا يرتكز على كبير شيء.

مضافًا إلى ذلك أنه حتى (الأشياء) الموجودة في هذا العالم، كنَّا قد اشترياها من مجتمعات تملك (أفكارًا).

2 - الفكرة ومراقب الاستعمار:

والواقع أنه يضاف- إلى ضعف جهازنا المفاهيمي الذي كنا بصدد الإشارة إلى فساده الداخلي- مفعول إضعاف آخر يتأتى من الخارج.

فنحن عندما نجهل قيمة شيء معين، لا يعني هذا مطلقًا أن كل العالم يجهلها مثلنا.

ولنتخذ لهذا مثلًا: فهناك أجيال من إخواننا في الدين، قد عاشت في العراق على مقربة من منابع البترول المنتشرة على سطح الأرض، ولكن هذه الأجيال قد ظلت تجهل الثروة الماثلة لأبصارها، حتى حان الوقت

الـذي أحـسّ فيـه مغامـر أرْمنِـيٌّ بالأمـر، وكان يحيـا في إسـطنبول معدمًـا لا يملـك نقـيرًا، وإذا به يقـوم بأكبر صفقة ماليـة في ذلك الحـين، بتخليه لإحدى الـشركات الإنكليزيـة عـن حقـوق ليسـت لـه، ولكـن جهالـة المسـلمين هي التـي مكنتـه مـن اكتسـابها في مقابل لقمـة خبز!

وقـسْ على ذلـك الحال بالنسـبة إلى القيمـة الاجتماعية للفكـرة؛ إذ يمكن أن نكـون عـلى جهـل بقيمتهـا، بل نحـن نجهلهـا فعـلًا، ولكن الاسـتعمار لا يجهلهـا مثلنا.

فقـد مَكَّـنَ في العـالم لجهـاز من المراقـب التي تقتـصر مهمتها عـلى تَرَصُّد حركـة الأفـكار، ومنهـا نفهـم أن كل مـا يمـرّ في العـالم الإسـلامي مـن أفكار يهمـه بصفـة خاصـة، بقدر مـا يهمـه البترول، بـل أكثـر من ذلـك بكثير.

وبطبيعـة الحـال فهـذا الاهتمام ليـس لمصلحة فكريـة محضة، فالاسـتعمار ليـس مـن هواة الرَّقائـق الفكريـة أو المولعين بهـا، ولا هو من زارعـي الأفكار أو مكتسبيها.

فلـه أفـكاره الخاصـة بـه، وهـو يحتفـظ بهـا لنفسـه بغـيرة، مفضـلًا بيـع (أشـيائه) لنـا.

ولكنـه لكـي يحافـظ عـلى احتـكاره (للأفـكار)، قـد مكـن، عـلى وجـه الدقـة، في العـالم: لجهـاز كامـل من الْمَراقـب التي تستكشـف الأفـكار، وتتتبع تحركاتهـا باهتـمام بالغ.

واهتمامـه بهـا، اهتـمام عمـلي محـض، لأن الأمـر ينحـصر بالنسـبة إليـه في حمايـة ذلـك الاحتكار لنفسـه.

وهـذا يـؤول عمليًـا إلى صياغـة فنيـة واسـتراتيجية خاصـة، ليـس لـدى العـالم الإسـلامي أي فكـرة عنهـا.

والاستعمار لا يقنع بمجرد الاستعلام عن حركة الأفكار؛ فهذا شأن (الفيلسوف)، إلا أن للاستعمار فلسفته الخاصة التي تتمثل في التخلص من الأفكار التي تضايقه، وفي الانحراف بها عن مراميها، بتوجيهها خارج المدار الذي أراد أصحابها استبقاءها فيه.

- كيف يتخلص من فكرة معينة! كيف ينحرف بها ويوجهها خارج مدارها؟

- ها هنا بالذات تتجلى عبقرية الاستعمار الجهنمية.

ويتعين علينا أولًا أن نقبل مبدئيًا: أن الاستعمار يعرف -على الأقل أكثر مما نعرف نحن أنفسنا- كلَّ التفاصيل التي أشرنا إليها بصدد ضعف أساسنا المفاهيمي، وربما لا نكون سوى مجرد أطفال بإزاء الأخصائيين الذين يعملون منذ عشرات السنين في مختبرات الاستعمار النفسية، حيث يمتلكون بالإضافة إلى ذلك، كل وسائل الاستعلام التي لا يمكننا امتلاكها الآن.

وإذن فهو محيطٌ علمًا بكل ثغرات نفسيتنا، ولذلك فهو عندما يقوم بمعركة مفاهيمية، يكون على معرفة تامة بأرض المعركة أولًا وبالذات، ثم إنه على معرفة فنية (بالفكرة) باعتبارها وسيلة من الوسائل، من حيث معرفته لقيمتها الرياضية، وحدود هذه القيمة في النهاية.

ولذلك فهو يطبق عليها كل قواعد الحساب الأوَّلي تقريبًا، للتبديل من قيمتها بالزيادة أو النقص، حسب متطلبات القضية، وحسب البطاقات النفسية التي تشير لديه إلى الاتجاه الذي يتعين على العمل أن يَتَّم في منحاه.

وحساب (الأفكار) هذا، يرتكز من ناحية على القيمة (الصُّلْبيَّة) للفكرة، وعلى قواعد (علم ردود الأَفعال البافلوفي) من ناحيةَ أخرى.

فالفكـرة (ف) لهـا قيمـة معطاة هـي (ك) مثـلًا، وهذا الفـرض يمكن أن يكتـب كـما هي الحـال في علم الجـبر: ف = ك، وهـذه العلاقة تعبر عـن القيمة الرياضيـة للفكرة.

ولكـن إذا كانـت القيمة العدديـة في الرياضة يمكن أن تـزداد بجمعها إلى أخـرى، فـإن القيمـة المفاهيمية تنقـص عمومًا بمجـرد ما نضيف لهـا أي قيمة أخـرى، حتـى ولـو كان حـدًّا إيجابيًـا: ت > س (أكبر مـن) صفر، مثـلًا؛ فأنا إذا أضفـت هـذا الحـدّ مثـلًا إلى العلاقة السـالفة يكـون لـدي ف1 = ك + ت، ويكـون لـدي الإحسـاس بـأني زدت في القيمـة الرياضية لِــ: ف، ولكن ليس أقـل من ذلـك يقينًا: فالحـد: ت يمكـن أن يُنقص تمامًـا من قيمـة الفكرة، ولا يزيد فيهـا كفكرة..

ولكـي نفهـم ذلـك نأخـذ حالـة محسوسـة وجـد بسـيطة، وإن كانت قد تكـون غـير معـبرة بطريقـة كافيـة: فكـرة = مـاء، لنضـف إلى هـذه المعادلـة حـدًّا إيجابيًـا: فنقـول: فكـرة جديـدة = ماء عـذب؛ والمعلـوم أن قيمـة (الماء) باعتبارهـا تعبـيرًا رياضيًـا عن فكـرة معينة، أهم مـن (الماء العـذب) لأنها أكثر (عمومًا).

وحتـى لـو أن المثـال مفـرط في التبسـيط، فإنـه يوضـح مع ذلـك أن قيمة فكـرة معينـة، يمكن أن تنقـص حتى بإضافة حـدّ إيجابي لهـا، وإذا كان التدليل صحيحًـا بالنسـبة إلى الحـد الإيجـابي، فحـري بـه أن يكـون كذلك بالنسـبة إلى حدّ سـلبي.

والآن فلنطبـق هـذا التخطيـط المبسَّـط عـلى تصميـم المعركـة المفاهيمية، فالاسـتعمار يمتلـك كـما قلنـا جهـازًا مـن المراقـب التـي تستكشـف الأفكار،

كـما يمتلـك منهجًـا يتيح لـه تبديـل قيمة فكـرة مـا، بالإضافة أو الحـذف لحدّ مـن حدودها، وهـذا المنهج يطبـق قانـون ردود الفعل الشرطية الذي اكتشـفه (بافلـوف)، مسـتعملًا مـا يمكـن أن نطلـق عليـه (المـرآة المُعَطِّلـة) ذات الآلية المبسَّـطة؛ فهـذه المـرآة تُسْـتَعْمَل في تسـليط الانعكاسـات التي (يسـقطها) حدٌّ مختـار لغايـة معينة، بطريقـة تلقائية على (فكرة) مـا، في ذهن قارئ مـن القراء.

ونحـن نسـتطيع أن نأخـذ على سـبيل المثـال، بغيـة توضيح الكيفيـة التي تعمـل بها هـذه المـرآة، (الفكرةَ) التـي نتحدث عنهـا هنا بالـذات، أعني فكرة الكمنويلـث الإسـلامي؛ ولنكـن عـلى اقتنـاع كـما سـيأتي توضيـح ذلـك، أن هـذه (الفكـرة) لم تغـب عـن مراقب الاسـتعمار المختصـة، منذ الوهلـة الأولى التـي أذيعـت فيها عـلى الجمهـور بين سلسـلة الدراسـات التـي يُزْمَـع نشرها في (سلسـلة الثقافـة الإسـلامية)، ومـن ثَـمَّ فهـل تدهش أيهـا القارئ المسـلم الطيِّـب القلـب، إذا مـا قـرأت صبيحـة ذات يـوم في صحيفتك هذه السـطور المحـرَّرة كـما يـلي: «عندمـا كان فاضـل الجـمالي يسـافر إلى لبنـان، كان يـزور حـزب الكتائـب، ويثـير في أعضائـه الشـبان: النزعـةَ إلى الفتنـة الطائفيَّـة ضدَّ المسـلمين، ويخـرج من دار الحـزب ليعقد المؤتمـرات الصحفية التـي يدعو فيها إلى تكويـن (كملنويلث إسـلامي)».

وإنـك لتتسـاءل أيهـا القـارئ الطيـب القلـب، عـما إذا كان هـذا ممكـن الوقـوع؟!

– بـلى قـد حصـل ذلـك بالفعـل، وقـد تكـون قـرأت الخـبر المذكـور في إحـدى الصحف التـي تصدر بالقاهـرة، في عددها الصـادر بتاريخ: 5/ 10/ 1958م.

هـا نحـن على وجـه الدقة، أمـام (مـرآة) تامة الـشروط، حيث يأتي اسـم (فاضـل الجـمالي) كـما هو المـرآة، ليعكـس في ذهن القـارئ ردود فعـل معَطِّلة، وربـما ليـس فيـما يتعلـق بهذه الدراسـة فحسـب، لأنه مـن يـدري إلى أيِّ مدى ترمـي فكـرة الاسـتعمار في هـذه الحالـة؟ مهـما يكـن مـن شيء، فنحـن نـرى في نطـاق موضوعنـا، أيَّ (حـدٍّ سـلبيّ) يريـد الاسـتعمار إضافته في هـذه المرَّة إلى الفكـرة التـي نحـن بصـدد تحريرهـا هنـا، وهـذه لغة مرآتـه، وكأنهـا تقول للقـارئ: إننـا هنـا بصـدد تحرير فكـرة عزيـزة على رجـل يقف في هـذه الآونة أمـام عدالة بـلاده، متَّهـمًا بالخيانـة العظمى!!

ولكـي نـترك للقـارئ تحكيم حاسـته النقديـة، نُذكِّره فحسـب، بأن السـيد (فاضـل الجـمالي) وبقيـة الرجـال الذيـن كانـوا يحكمـون معـه ببغـداد، كان لهـم قامـوس ديبلومـاسي آخـر؛ وبـما أننـي أعـرف مـن هـو فاضـل الجمالي منـذ زمن بعيـد- وقـد كنـت أجاهـر بذلـك في كتاباتي عندمـا كان بعـض الساسـة المعيَّنين يفسـحون لـه صدورهـم في صحافتهـم- فإننـي أسـتطيع أن أؤكـد أن (فـرس الرّهـان) السـابق (لنـوري السـعيد)، كان يسـتعمل كلمـة (إسلامسـتان): بدل (كملنويلـث إسـلامي) وهي الكلمة التـي قذفَت بها وزارة الخارجيـة الإنكليزية في (طهـران) منـذ نهاية الحرب الأخـيرة، لتَضع بها قاعدة مفاهيميـة تمهِّد (لحلف بغـداد) مسـتقبلًا! وإذن فنحن قلبًـا وقالبًا أمام (مرآة) تُسْـتَعمل بدقَّـة متناهية في (إسـقاط) انعكاسـات معينـة عـلى فكـرة الكمنويلث الإسـلامي، ويتعـين علينا أن نـدع للقـارئ التَّمَرُّن عـلى زيادة تحليـل آليتهـا إذا أراد.

فقـد أردنـا في هـذه الفقـرة أن نبين لـه ببسـاطة أنـه يَنْضـافُ إلى الضِّعف الداخـلي في تجهيزنـا المفاهيمـي، (إضْعَـاف) ناتـج عـن مجهـود منهجـي، مـن

المعاكسة المتوجِّهة من الخارج؛ وباجتماع ذينك المفعولين تصبح حياة (الأفكار) صعبة في المجتمع الإسلامي، المجتمع الذي لم يَصِلْ بعد- في طوره/ ما قبل الاجتماعي/ - عالَمَ الأشياء بعالم الأفكار.

وبطبيعة الحال فإنَّ لهذا التخلُّف الذي يَسِمُ طوره/ ما قبل الاجتماعي/ دَوِيُّه وتأثيره على كل الحياة في الأشكال المختلفة للافعَّالية التي قد تكوِّن من الوجهة الاجتماعية أهمَّ مشكلات العالم الإسلامي.

ب - اللافعالية
في المجتمع الإسلامي:

(مظاهرها المختلفة):

من البين أنه لا تلزمنا ملاحظة طويلة، لكي نأخذ في اعتبارنا أن (المنطق العمليَّ) ينقص البلاد الإسلامية عمومًا؛ فهذا أمر متوقَّع، لأنّ العجز في الأفكار، يخلق أو يُنتِجُ في المجال النفسيّ عجزًا في (المراقبة الذّاتية)، وفي مراجعة (النتائج).

ففكرنا لا يقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية، و (نتائجها) من ناحية أخرى.

ومفهوم (المحصول) لا وجود له في تربيتنا الأولى، إذ هو لا يكوّن جزءًا من عالم أفكارنا.

بينما المجتمع هو جهاز التّحويل، الذي يحوِّل الطاقات الاجتماعية إلى (نتائج) مختلفة، ولذلك يتعيّن علينا أن نطبِّق عليه (برهان الديناميكا الحرارية)، الذي يعبّر عن العلاقة بين (الطّاقة المستهلَكة) م، و (العمل الحاصل) ر، حسب النسبة الكلاسيكية: المحصول= ر/ م.

فالميكانيكيّون يعلمون أن هذا الجهاز، يكون أقرب إلى الكمال عندما تكون قيمة رقم أقرب إلى 1 (واحد)؛ مع العلم بأنها تظلّ دائمًا دون (الواحد) بحكم طبائع الأشياء.

و (الفـرق) الموجود بين (الواحد) و (خارج القسـمة) يسـمَّى (التَبْديد)؛ (فالمحصـول) و (التبديـد) قيمتـان متعاكسـتان، أعنـي إذا زاد أحدهـا نقـص الآخـر بالضرورة.

فـإذا كان الجهاز مطلق الجـودة، فإن محصوله يكون مسـاويًا للواحد، وفي هـذه الحالـة نحصل عـلى ما يسـمَّى بـ (الحركـة الدّائمـة)، وهو أمر مسـتحيل التحقُّق حسـبه قوانـين الميكانيكا.

وإذن فهنـاك فجـوة بـين القيمـة الحقيقيـة للمحصـول والواحـد، وبهـذه الفجـوة يمكـن أن يقاس مقدار العجـز الميكانيكيِّ أو ما يدعـى بتبديد الجهاز.

وكل هـذه المفاهيـم تنطبـق تمامًـا عـلى المجتمـع البـشري، باعتبـاره جهاز تحويـل للطاقـات الاجتماعية.

وبطبيعـة الحـال فإن هـذا (الجهـاز) الأخير، بقدر مـا يكون أكثـر جودة، بقـدر مـا يكـون (محصولـه) - أعني علاقتـه ر/ م في مسـتوى أفضـل؛ على أنه يتعـيَّن علينـا أن نلاحـظ بانتبـاه بالـغ أنَّ عمليـة تحويـل الطاقـات الاجتماعيـة ترضـخ لقوانـين مختلفة عـن مجـرد قوانـين العمليـة الميكانيكيَّة البسـيطة؛ فهي ترضـخ بالخصـوص لنسـق النظـام الاقتصـاديّ الذي يحتِّـم أن يكـون الإنتاج متفوِّقًـا عـلى الاسـتهلاك دائـمًا، وإلاَّ تحـَّدر المجتمـع إلى درك الإفلاس.

وهذا الشرط المعبِّر عنه في صورة (جبريَّة) بوساطة (اللاَّمُتَساوية).

الواجـب > (أكـبر مـن) الحـق، يشـير إلى أن العلاقـة: ر/ م لأحـد المجتمعـات يجـب أن تكـون على عكـس العلاقـة الميكانيكيَّـة، أعنـي أكثر من (الواحـد) بقـدر الإمـكان.

وهـذه الحقائـق التـي تشـير إليهـا المصطلحـات في صيغـة جبرية، هـي التي يعـبر عنهـا عالم الاقتصـاد بقوله: إنه يجـب أن يكون الإنتاج أكبر من الاسـتهلاك.

ويمكننا التَّدليل على ما سلف بالمثال التَّالي، وذلك باتِّخاذنا إياه كصورة مُحَلَّلة من صور النَّشاط قي شكل:... ميزانية لإحدى الروابط الطالبية بالقاهرة. ابتداء من شهر (نوفمبر) سنة 1958 حتى شهر (يوليو) سنة 1959 م:

أ – مداخيل	ق 85،	ج 479
(تضاف إليها مساعدة قيمتها)		ج 120
ب – نفقات	ق 73،	ج 331
جـ – تفاصيل النفقات:		
1 – معونة للطلبة	ق 50،	ج 283
– مصاريف إدارية	ق 20،	ج 13
3 – مواصلات	ق 21،	ج 6
4 – مصاريف الاستقبالات	ق 57،	ج 26
5 – نشاط ثقافي:	ق 15،	ج 1
(عددان اثنان لجريدة حائطية)		
6 – نفقات المؤتمرات		ج 76
7 – أدوات الرياضة والرحلات		ج 14
8 – مساهمة الرابطة في تكاليف المحل	ق 7.	ج 67
9 – تسديد الدُّيون	ق 61،	ج ة 3
10 – مكافأة البوّاب		ج 08 [1]

(1) يلاحظ القارئ أن هناك نقصا مقداره (0،42 ج) بين مبلغ النفقات برمته، وبين مجموع التفاصيل، وهذا لا يقلل من قيمة أحكامنا من الوجهة النظرية، وهي التي تهمنا هنا (المؤلف).

ملحوظة:

لـو نظرنـا إلى الفقرة رقـم (5) باعتبارها قاعدة النشـاط لرابطـة طلابية، لوجدنا العلاقة: ر/ م مسـاوية لِـ: ق10،ج1/ ق73،ج331، أي أنها أسـوأ من علاقة محرِّك رديء، وذلـك باعتبارنا الأشـياء من وجهـة نظرية بحتـة بطبيعة الحال.

والواقـع أننـا عندمـا نحلِّـل بعـض النشـاطات النموذجيـة في المجتمـع الإسـلامي، نلاحـظ أن (التبديـد) هـو الغالـب بكثـير في معظـم الأحيان على (المحصـول)؛ وبملاحظتنـا لبعض النشـاطات النموذجيـة في الجزائر، تمكنت في دراسـة ظهـرت لي منـذ بضعـة سـنين، مـن الإشـارة بالأرقـام إلى تبديـد مفـرط، لطاقتنـا الاجتماعية، وتبذير مسرف وغير محسـوس في وسـائلنا، وهذا مظهـر مـن مظاهـر اللاَّفعَاليـة التي تُعـزَى إلى العجـز في (أفكارنـا)، ولكننا إذ نقـرِّب الملاحظـة التـي قمنـا بهـا في الجزائر، مـن ملاحظة أخـرى أجريت على الصعيـد الاجتماعـي نفسـه، نلاحـظ أن هـذا العجـز يخلـق مفعـولًا اجتماعيًـا معينًـا، وسـببًا نفسـيًا مصطنعًا يمدد في هـذا المفعول ويمنحه تبريـرًا ومغالطة، لأننـا نلاحـظ على الصعيد نفسـه (التبديد) في الوسـائل، مما يـؤول إلى (نتائج) محـدودة مـن ناحيـة، ثـم نجـد أن الأشـخاص يفـسِّرون هـذه المحدوديّـة في النتائـج لا بسـببها الحقيقـي المتمثِّـل في التبديـد، ولكـن بسـبب ثانـوي هـو: (الفقـر)! وبـما أن هـذا السـبب الثاني، ليـس هو السـبب الحقيقـي، نجدنا على نحـو مـن الأنحـاء، مُنحَبِسـين في مناقضـة أضعنـا مفتـاح مغاليقهـا: فنحن لا نعـاني اللاَّفعَّالية فحسـب، ولكننا نخترع شـيئًا مـا: (تُرَّهة) معينة لاسـتبقائها! ونحـن عندمـا نتفحَّص عن كثـب حياتنا الاجتماعيـة، نجد فيها ما لا يسـتهان بـه من التُّرهـات من هـذا القبيـل، بغيـة تبريـر لافعَّاليتنا.

بالإضافـة إلى تُرَّهـة (الفقـر)، يمكننـا أن نذكر ترَّهـة (الجهـل) التي تبرِّر لافعَّاليتنـا في مجـال آخـر؛ بل وهناك حتـى تُرَّهة (المسـافة)! فقد سـألت أخيرًا

اثنين من الطلاب الأندنوسيين السؤال التالي كمعيار:

– لماذا لا يوجد في العالم الإسلامي تيار فكريّ نوعيّ، كما هو الشأن في العالم الشيوعي، والعالم الغربي؟

وقد فكر الشابان ثانية من الزمان ثم أجاباني: إن (المسافة) بين أجزاء العالم الإسلامي تفصلها الواحد عن الآخر، وتفصل بين أفكارها كما تفصل بين أجسامها.

فسألتُ سؤالًا آخر:

– هل تريان أن أجزاء العالم الإسلامي هذه، كانت تتصرف بطريقة أخرى، لو انعدمت هذه المسافة التي تفصل بينها؟

– فأجابا: أن نعم وبالتأكيد.

وحينئذٍ سألت السؤال الثالث:

– ها أنتما تريان أن هذه الأجزاء قد تخلَّصت من تلك المسافة الفاصلة في القاهرة، حيث تتمثَّل هذه الأجزاء في صورة بعوث طالبية، فهَلَّا رأيتما هؤلاء الطلاب يقيمون فيما بينهم تيَّارًا فكريًّا؟

ولقد بدَّد سؤالي هذا ولا ريب في ذهنيهما (تُرَّهة المسافة) لأنَّني رأيتهما يبتسمان كما يبتسم الطيِّبون من أولي العقيدة، عندما يكتشفون غلطتهم بأنفسهم!

وهناك أشكال أخرى من اللاَّفعَّالية غير التُّرَّهات، أو هي على الأقل تبزر بترهات من نوع آخر، وتفسَّر في النهاية بالداء نفسه المتمثل في: العجز في الأفكار، وانعدام الاتصال بين عالم أفكارنا وعالم أشيائنا.

لاحظوا سلوكَ أحد الوُعَّاظ المصلحين: ما الذي يريد عمله؟ تُراه يبغي إصلاح المجتمع بكلماته ومواعظه؟ هذا حسن جدًّا.

ولكننا نتساءل: في أيِّ البقاع تبدو الحاجة أمَسَّ إلى كلماته؟ إنها تبدو بطبيعة الحال في القطاع الاجتماعي الذي يمكن لمواعظه أن تحدث فيه أكبر قدر مستطاع من التأثير، أعني في البقاع التي تُرك فيها الشعب لمصيره من غير تعليم، ومن غير عمل، ومن غير مثال بناء يُنَزِّله منزلة القُدْوة.

وإذن فالمتعِّينُ على هذا المصلح أن يحمل كلماته إلى أسفل وأوسع قطاع ممكن؛ أعني إلى الطبقات السفلية من الأهلين، وإذا بنا نراه يقف شخصه على (الأفراد الموسرين)، الذين يسعون بأنفسهم إلى جوار منبره، أو أمام مِنَصَّته، ليسمعوا أقواله، ثم يعودون به إلى مقره في عرباتهم الفخمة! وفي حالة أبعد من أن تكون مماثلة لهذه، حيث وقف النبي - صلى الله عليه وسلم - ذات مرة كبماته على (وجهاء القوم)، فجابهه القرآن بالآية: (عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى..) [عبس 80/ 1 - 2].

أيّ كلمات شديدة الوقع تتنزَّل من السماء لو وُجهت في يومنا هذا إلى هذا المصلح بالخصوص! ولنشاهد أبسط واعظ في المساجد يوم الجمعة، إن دعوته تنصبُّ عمليًا على الفضائل التي كوَّنت عظمة الإسلام في القرون الأولى.

ولكن لنراقب هذا الواعظ عندما يغادر المنبر.

إن حياته العائلية مطابقة في معظم الأحيان للمثال الذي كان ينتقده، فغالبًا ما تكون أسرته مالكة لما هو غير ضروري، ومتصلة بالأسر المترفة التي تمتلك السيارات الفخمة والتي تقضي عطلاتها على الشواطئ.

إن وعظه ليس عملًا اجتماعيًا، ولكنه مجرد واقعة لفظية؛ أو هو في أحسن الأحوال مجرد أخلاقية ملتفتة إلى الماضي أكثر من اتجاهها صوب المستقبل؛ فهو يفتقد القوة التي تَسِمُ الأعمال الكبيرة، والتي تصدر عن

الـروح في لحظـات توترهـا الخـلاق، وهو مـا يمكـن تفسـيره بانعـدام النزعة الغيبيـة الحقيقية.

فنحـن لا نجـد في ذلـك الوعـظ الاهتـمام بالفعاليـة، ولا الفعاليـة ذاتها، تلـك التي تكـوِّن معيـارًا صالحًـا في كل زمـان، وبالخصـوص في عصرنا هذا، حيـث تمثـل المعيـار الراجـح في جدول قيـم هـذا الزمان.

إننـا في كل مـرة نقـف فيها أمـام مظهر من مظاهـر اللافعاليـة في المجتمع الإسـلامي، نـرى أنفسـنا مجبرين على ربطـه (بعـالم أفكارنا) لأنه في هـذا العالم تكمن أدواؤنا!

القسم الثالث:
وظيفة كمنويلث
سلامي

1 - مناطق (الحضور):

إن (عالم أفكارنا) يتكوَّن بالتَّدريج، منذ اللحظة التي ندخل فيها هذا العالم.

وهو يعانق على التوالي دائرة أوسع، بقدر ما نُحَسِّنُ من تفكيرنا في الأشياء، ابتداء من المرحلة/ ما قبل الاجتماعية/ ، في انتقالنا تقدميًا من محيط الأسرة إلى المحيط الاجتماعي.

وهكذا يتكوَّن تفكيرنا وتنمو معه أفكارنا من احتكاكنا بعالم الأشياء.

وهذا الاطراد النفسي هو الذي يحدد الخصائص الاجتماعية (للأنا) لدى الطفل، كما يحدد على نحو ما مدى حقل نشاطه، أو بتعبير آخر فَلَكَ (حضوره) في العالم، وبقدر ما تزداد تربية الطفل، بقدر ما تكتمل الخصائص الاجتماعية (لأناه)، وتتسع دائرة (حضوره) في العالم، وتخصب شخصيته .

ومن ناحية أخرى، نلاحظ أن تكيّف طفل اليوم مع (عالم الأفكار) وتكوُّن دائرة حضوره، يتمان بأسرع مما كان عليه الأمر قديمًا.

فالعنصر الصياغي الذي أبرز إلى الوجود من الوجهة الجغرافية- السياسية.

: المساحات الكبيرة المخططة، وسَرَّع التطور الاجتماعي للكتل البشرية التي تعيش في هذه المساحات، قد سَرَّع كذلك، من وجهة النظر النفسية، تكيف الأطفال مع (عالم الأفكار)، لأن الطفل نفسه قد أصبح يعيش في مجال أوسع، بفضل المذياع، والسينما والتلفزيون، ومجلات الأطفال المصورة.

فقد حدث ما يشبه التمدد في مستواه الشخصي، وعلى العكس من ذلك، إذا ما طرأت ظروف خاصة لا تمكنه من التكيف بهذه الطريقة، فهو يبدو متخلفًا بالنسبة إلى جيله، ومن ثَمَّ تطول مرحلته ما قبل الاجتماعية.

وهذه الاعتبارات ذاتها، صالحة فيما يتعلق بتطور الفرد النفسي عمومًا، وتطور المسلم نفسيًا بالخصوص.

فالمستوى الشخصي لهذا المسلم، حتى ولو نما نموًا نسبيًا، يمكن أن يبدو في حالة تضاؤل، بقدر ما ينمو تطور الآخرين بسرعة أكثر.

والواقع أن الوعي الاجتماعي الذي كان يتكون منذ حين في دائرة محدودة، أمام منظر محدَّد عمومًا، بنطاق بلاد معينة هي الوطن، قد أصبح يتكون اليوم في إطار أكثر امتدادًا بدرجة لا تضارع، وفي منظر أكثر انفساحًا كذلك.

فكما هي الحال بالنسبة إلى الطفل، وللأسباب نفسها، يحصل امتداد في المستوى الشخصي للفرد: امتداد حضوره إلى مدى أبعد هن مقره، فوسطه، فبلاده.

وهذا التوسع في مستواه الشخصي، يكون مقياسًا غير مباشر لدرجة تحضر هذا الوسط، حيث لا يحيا الفرد مع أهله ومواطنيه فحسب، ولكن مع عدد أكبر من الآدميين.

وإذا كان هذا مقياسًا للتحضر بالنسبة إلى وسط معين، فهو صالح كذلك بالنسبة إلى الوسط الإسلامي، إما لقياس تقدمه إذا كان متقدمًا في هذا الطريق، وإما لقياس تخلفه إذا كان متخلفًا فيه.

وإذن فنحن إذا أردنا استدراك هذا (التخلف) الذي تناولناه كحالة مرضية خاصة بالمجتمع الإسلامي، كما سلف أن شرحنا ذلك فيما مضى،

فهنـاك مجال لكـي نأخذ في اعتبارنـا بطريقـة منهجية الإطـار الاجتماعي الذي يتكـوَّن فيـه وعي المسـلم المعـاصر، بغية منحه أقصى مسـتوى شـخصي ممكن.

والواقـع أن فكـرة الكمنويلـث الإسـلامي تمثـل في ذاتها تمديـدًا في المنظر الـذي يتكـوَّن فيه الإنسـان المسـلم، وبالتالي امتدادًا في مسـتواه الشـخصي.

ونحـن إذ نُلخِّـص هذه الاعتبارات بالنسـبة إلى مسـلم معـين؛ يمكننا أن نقـول إن وعيـه يتكوَّن وسـط عدد معـين من الدوائـر التي نسـتطيع تخطيطها، في اعتبارنـا لهـا بالنسـبة إلى فـرد (عـربي جزائـري) لا يتعـدى نطـاق حضوره الدائـرة المشـار إليهـا بالرقـم (1)، ولتكـن (مدينـة الجزائر) على سـبيل المثال:

فنشـاهد على هـذا التخطيط، أنه بقدر مـا يعي فيه الفرد المولـود في الدائرة رقـم (1)، الدائـرةَ رقـم (2)، أعنـي مشـاكل العالم العـربي واتجاهاتـه وآماله، بقـدر مـا يكتمـل وعيـه ذاتـه، وينمو مسـتواه الشـخصي؛ وبقـدر مـا يتخطَّى دائـرة داخليـة إلى أخـرى خارجيـة، بقدر مـا ينمو عالم أفـكاره؛ وعندمـا يبلغ

وعيه الاكتمال المتطابق مع (الدائرة العالمية) يكون مستواه الشخصي قد بلغ أقصى اكتماله، بحيث يَنْبَثُّ (حضوره) في سائر أجزاء المعمورة.

ولكي نعود إلى موضوعنا، نقول إن الإنسان المسلم بتطوره في الاتجاه (الانبساطي)، يستدرك تقدميًا من تأخره، ويملأ فراغ تخلفه كذلك.

وإذن فانتقاله من دائرة مواطنه إلى دائرة العالم الإسلامي حيث تحتل فكرة الكمنويلث الإسلامي مكانها، يمثل اتجاه اكتماله الطبيعي في عصر المساحات الكبيرة المخططة!

2 - تبعية المشاكل:

غالبًا ما نذكّر بأن القرن التاسع عشر، قد كان قرن التاريخ، لأن مشاكله توضع في الزمان، ويتم تقصِّيه للأحداث في ماضي البشرية حتى تخوم ما قبل التاريخ.

وكذلك يقال إن القرن العشرين، هو قرن الجغرافيا السياسية، لأن مشاكله أميل إلى عناق معطيات المكان؛ وبما أنه قد شاهد ظهور المساحات الكبيرة المخططة، فقد أدى به اطراده في هذا الاتجاه، إلى أن يشاهد الآن المحاولات الأولى، لفتح ما بين الكواكب من مجال.

وإن دوائر الأفكار التي قدمنا تخطيطها الرامز لهذا المفهوم، لهي الترجمة البسيطة لهذه الظاهرة العامة في حياة المسلم.

فقد أصبح الإنسان المسلم ذاته مرغمًا على الحياة في مجال أكبر، أو بتعبير أدق، في مجالات متعددة، فهو في أحدها مواطن في بلاد معينة، وفي الآخر يمكن أن يكون من مشمولات وحدة فدرالية ذات طابع سياسي سُلالي، وفي مجال ثالث يكون فردًا تابعًا لمجتمع ذي طابع ديني، وفي الرابع يمثل عضوًا في مُتَّحَدٍ ما زال يبحث عن تحديد طابعه ورسالته، وأخيرًا فهو في حيِّز القوة (مواطن عالمي) حسب التعبير الأصيل المعزوّ إلى جاري ديويز (Garry Dawies).

ولكننا حتى الآن لم نضع مشكلة الإنسان المسلم إلا بالنسبة إلى المجال المحدد (بدار الإسلام).

ويمكـن للقـارئ أن يقـدر أننـا بهـذه الطريقـة، قـد اسـتطعنا أن نهمـل، في قليـل أو كثـير، المعطيـات التـي تتدخـل عـلى حـد سـواء في تلك المشـكلة، إمـا باعتبارهـا عامـلًا محددًا لموقف الإنسـان المسـلم الاجتماعـي، أو باعتبارها نتيجـة مترتبـة عـلى هـذا الموقف.

وهـذا حـق فقـد قصرنـا موضوعنـا طواعية عـلى زاويـة جد محـدودة، إذ لم نأخـذ في اعتبارنـا إلا العنـاصر التـي تتعلـق مبـاشرة بفكـرة الكومنويلـث الإسـلامي.

ولكننـا بنظرتنـا الى المسـلم في هـذا المجـال، يمكننـا أن نتعـرف مـن هذه النظـرة نفسـها عـلى ماضيه ومسـتقبله، وِراثتـه ومهمتـه، وعلى دوره كإنسـان عقيـدي، ودوره كمواطـن.

ولقـد لاحظنـا في الفقـرة السـالفة أن كل انتقـال مـن دائـرة داخليـة إلى دائـرة خارجيـة، يسـجل تقدمًـا في التطـور النفـسي للفـرد، وتمددًا في مسـتواه الشـخصي يمنحـه سَـعَةً أكـبر عـلى نحـو مـن الأنحاء.

وعـلى ذلك فمن الحق القول بأننا إذ نسـلم للمسـلم بمهمة تشـمل سـعة العـالم الإسـلامي، نكون قد زدنا في مسـتواه الشـخصي أولًا وبالـذات؛ ولكن أليـس هذا التقدم للإنسـان العقيدي في نهاية الحسـاب تقدمًـا للمواطن؟..

المؤكـد أنـه قيد مشـترك بين الطرفـين، القول بـأن العقيدي الحق، يكـون دائمًا مواطنًا حقيقيًا حتى بالنسـبة إلى مسـاكنيه مـن ذوي المعتقـدات المغايرة لمعتقده.

ومـن ناحيـة أخـرى فقـد قُلنَـا فيـما مـضى أن (عـالم أفكارهـا) هـو الذي يحمـل الـداء وأسـباب أزمـة العالم الإسـلامي.

وهـذه الملحوظـة يمكـن أن تُتَرْجَـمَ بطريقـة أخـرى هنـا، فنقـول إن (الإنسـان العقيـدي) يحمـل في داخلـه المشـاكل التـي يواجهها المواطـن، وإذا

ما خلَّصْنا الواحد من بعض عقده المعينة، نكون قد خلصنا الآخر، بهذه العملية ذاتها من جزء كبير من مشاقه، لأنه يتصرف حاملًا لردود فعل ليست متأتية من بلاده، ولكن من (حبكة) تاريخية متأتِّية من الحضارة الإسلامية ذاتها.

فثلاثة عشر قرنًا قد فصَّلت نموذجًا اجتماعيًا مسلمًا، يتصرف ويفكر حسب كيفيات لا تغيب عنا ملاحظة سماتها المشتركة من (طنجة) إلى (جاكرتا).

والمترتب على ذلك، أننا بملاحظتنا لمشكلة (الإنسان العقيدي)، نكون قد لاحظنا مشكلة المواطن في عمقها: إذ أن مشاكل هذا أو ذاك ذات تبعية متلازمة.

وإذن فنحن إذ نتناول مشكلة الإنسان المسلم نكون قد التقينا بمشكلة (المواطن)، في أي بلاد ربطها التاريخ بصلات تقليدية مع المجتمع الإسلامي، بل نحن نتناول هذه المشكلة الأخيرة بطريقة أفضل.

فنحن بهذه الطريقة سنتفهم بالخصوص، وبأفضل من ذلك، البدعة المتبدِّية فيما هو واقع من أن مواطن (جاوة) ومواطن (مراكش)، يعيشان اليوم على نفس المحور الجغرافي - السياسي الذي يبدأ من طنجة إلى جاكرتا، وهما مع ذلك جد مختلفيْن، بالنظر إلى النموذج المجتمعي الذي يحيا على محور واشنطن- موسكو.

وذلك راجع لما بينهما من قاسم مشترك، ليس متأتيًا من الطقس ولا من التراب في بلادهما، ولكن من وراثة معينة يدينان بها إلى مجتمع (ما بعد الْمُوَحِّدين) الذي خصَّهُما في الواقع بالكثير من العناصر السلبية التي سبق لي أن حاولت إدراجها في دراسة أخرى تحت عنوان: (القابلية للاستعمار).

وإذن ففي يومنا هذا توضع مشكلة (المواطن) في أي بلاد على نفس المضمون الاجتماعي لمشكلة أي كان من (إخوانه في الدين) في البلاد الأخرى.

وهذا يؤدي إلى القول بأن مشكلة الإنسان العقيدي هي التي توضع في حقيقة الأمر، أعني مشكلة الإنسان المسلم الذي لا يعرف البتة كيف يستعمل عقيدته باعتبارها أداة اجتماعية.

وإن إحدى الفضائل التي يتعين ربطها بفكرة الكمنويلث الإسلامي، لهي إرْجاعُ هذا الاستعمال للإنسان المسلم، ومن ثَمَّ إرجاع ما للإسلام ذاته في النهاية من فعالية اجتماعية، ومن إشعاع في العالم.

3 - الشهادة:

إن الاعتبارات التي أُجْرِيتْ على تخطيط الدوائر (أي مناطق الحضور)، قد تناولت بالخصوص موضوع المظهر النفسي- الاجتماعي في مشكلة الإنسان المسلم باعتباره (مُمَثلًا) لأفعاله أو (مؤلفًا) لها..

ولكن القرآن يعينه لدور آخر، هو دور (الشاهد) أو المشاهد الأمين لأعمال الآخرين:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة 2/ 143].

والتخطيط السالف يمكن أن يتيح المجال لاعتبارات بالغة الأهمية متعلقة بهذا المظهر الأخلاقي، تلتقي تمامًا مع الاعتبارات التي قدمناها في الفقرتين السالفتين، أو هي تواكبها امتدادًا على نحو من الأنحاء.

فالواقع أن (الشاهد) في أساسه هو (الحاضر) في عالم الآخرين.

والصفة الأولى المكتسبة، لإثبات قيمة أي (شهادة) هي: (حضور) الشاهد.

ومنذئذ، إذا كان متعينًا على المسلم أن يقوم بالدور الملقى على عاتقه في الآية السالفة، فهو مجبر على الحياة في اتصال وثيق بأكبر عدد من الذوات البشرية ومشاكلها كذلك.

ومن ثم يتعين على (حضوره) أن يعانق أقصى حدّ ممكن في المكان، لكي تعانق (شهادته) أقص كمٍّ ممكن من الوقائع.

وعلاوة على ذلك، فإن المسلم في هذه الحالة ليس صاحب دور سلبي محض؛ إذ أن حضوره نفسه يؤثر على الأشياء وعلى أعمال الآخرين.

فعندما يكون الشاهد حاضرًا، يمكن لحضوره فحسب أن يغير من سير الأحداث، وأن يجنب الوقوع في المحظور؛ وعلى هذا فإن رسالة المسلم في عالم الآخرين لا تتمثل في ملاحظة الوقائع، ولكن في تبديل مجرى الأحداث، بردها إلى اتجاه (الخير) ما استطاع إلى ذلك سبيلًا: «من رأى منكم منكرًا، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

فهذا الحديث يضبط درجات الشهادة الثلاث، والدرجة الثالثة تمثّل الحضور المحض من غير تأثير مشاهد على الأحداث.

وحتى في هذه الدرجة التي يصفها الحديث «بأضعف الإيمان»، ليس حضور المسلم بالسلبيّة المحضة..

ففي تَثبّت الوقائع الباطني، يوجد الدليل الكافي على حضور المسلم في عالم الآخرين، ليس فحسب في دائرة مصالحه ومشاكله الذاتية بصفته مواطنًا وعقيديًا، ولكن في الدوائر الأخرى كمجرد (إنسان).

إلا أنه يجب أن نربط مفهوم الشهادة هذا، بكل الأهمية المتطابقة مع الدلالة التي يمنحه إياها القرآن، لكي نجعل منه رسالة المسلم الأساسية.

كما يجب أن نطرح المسألة على الصعيد (الأُخْرَوِيّ)، لكي نستكشف دلالتها بمزيد من الجلاء، وإن كنا لا ننتوي القيام بذلك في هذه الفقرة.

4 - الرسالة:

وهنـاك مفهـوم آخر يوضحـه تخطيـط الدوائر كذلـك فيما يتعلق بالإنسـان المسـلم الذي يجب عليه أن يقوم بدور الشـاهد، كما سـلف القـول؛ فهذا المفهوم قـد بـيَّن لنـا أنه يتعـيَّن عليـه الحضـور في مجـال الآخريـن -أو بتَعبـير مُتَمَشٍّ مع تخطيطنـا- في الدائرتـين 4 و5، مـا دام حاضرًا في الدوائر السـابقة لهما.

وفي ذات الوقت الذي يكون فيه (شاهدًا)، يتعين عليه أن يصبح (رسولًا).

كذلك، أعني صاحب رسالة يبلغها إلى الآخرين.

لقـد ختـم النبـيُّ - صـلى الله عليـه وسـلم - (حجة الـوداع) - كـما نعلم جميعًـا- بإشـهاد ذي أهميـة خاصـة مـن وجهـة النظـر الأخلاقيـة، إذ توجّـه بخطابـه إلى جمـوع المؤمنـين التي كانت تسـتمع إليـه في صمت وخشـوع، بعد أن أدّى إليهـم آخـر وصايـاه، متخـذًا السـماء شـهيدًا، فقـال لهـم: «ألا ليبلِّـغ الشـاهد منكـم الغائب».

فهـذه العبـارة تسـجل رمزيًـا ختام رسـالة النبـي - صلى الله عليه وسـلم -، ولكنهـا تسـجل في الوقـت ذاتـه اللحظـة المشـهودة التـي تصبـح فيها هذه الرسـالة، بـما في محتواهـا من أسـاسي، الرسـالةَ الخاصـة بكل مسـلم (حاضر) بـإزاء (الغائبين).

ولكـي نعطـي هـذا المشـهد الدلالـة المتطابقة مـع رمزيته، يجـب أن نربط كلماتـه ذاتهـا بمعنـى رمـزي فالمسـلم (الحـاضر) في هـذا اليـوم بسـفح جبـل عرَفـات، لا يمثـل شـخصه وجيله فحسـب، ولكنه يمثـل الأجيـال التي تأتي بعـده كذلـك، لأن عبـارة النبـي - صلى الله عليه وسـلم - لم تكـف ولن تكفَّ

عـن التَّصـادي والرنين في أسـماع الأجيـال المسـلمة المتعاقبة منـذ الجيل الأول الذي سـمعها.

فقـد كانـت هـذه الأجيـال جميعها (حاضرة) في شـخص السـامعين ذلك اليـوم، كـما أن الأجيال البشرية قـد حلفت يمين آدم في شـخصه قبل أن توجد في هـذا العالم.

(وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّـكَ مِـنْ بَنِـي آدَمَ مِـنْ ظُهُورِهِـمْ ذُرِّيَّتَهُـمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَـلَى أَنْفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِرَبِّكُـمْ قَالُـوا بَـلَى شَـهِدْنَا أَنْ تَقُولُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّـا كُنَّا عَنْ هَـذَا غَافِلِـينَ * أَوْ تَقُولُـوا إِنَّـمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَـا مِـنْ قَبْـلُ وَكُنَّـا ذُرِّيَّـةً مِـنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَـا بِـمَا فَعَـلَ الْمُبْطِلُـونَ * وَكَذَلِـكَ نُفَصِّـلُ الْآيَـاتِ وَلَعَلَّهُـمْ يَرْجِعُـونَ) [الأعـراف 7/ 172 - 174].

كذلـك إذ نسـتعمل اللغـة الرمزيـة التـي تترجـم روحَ المشـهد المذكـور بطريقـة أفضل، نقول: إن (الغائبين) في ذلك اليوم ليسـوا فحسـب، المسـلمين الذيـن أقعدهـم الشـغل الشـاغل أو المـرض، بعيدًا عـن (مكـة) و (عرفات)، ولكـن (الغائبـين) في تصـور كل الأجيـال، والغائبـين الذيـن لم تبلغهـم بعـد رسـالة الإسلام.

فـكل مسـلم قـد كان (حـاضرًا) معنويًا في عرفـات، واسـتمع إلى وصايا الرسـول - صـلى الله عليـه وسـلم - الأخيرة.

ولذلـك يتعـين عليـه اليـوم أن يحمـل الرسـالة الإسـلامية إلى كل الذيـن غابـوا في ذلـك اليـوم، وإلى كل الذين لا يزالون (غائبـين) الآن، وما بعد الآن.

فهل يحمل المسلم هذه الرسالة؟!

إن هـذا الخبر القصـير المقتطف من إحدى الصحف، يجيب عن السـؤال: فقـد قرآنـا في صحـف 13/ 9/ 1958، هـذا الإعـلان الغريـب: «زعيمـة

الجاليـة الإسـلامية في برلـين اسـمها فاطمـة»: زعيمـة الطائفـة الإسـلامية في برلـين سـيدة اسـمها فاطمة.

إنها ألمانية تزوجت رجلًا باكستانيًا، وأعلنت إسلامها.

وعندمـا مـات زوجهـا ذهبت لتقيـم في الجامـع الصغير الوحيـد الموجود في ضاحيـة برلـين، وكرسـت حياتها للدعوة الإسـلامية.

إن فاطمة تشكو من إهمال جامع برلين.

إنهـا تشـكو مـن أنها تملـك خمـس مصاحف فقـط؛ ولا تملك أسـطوانات كافيـة لإذاعـة القـرآن؛ وقـد احترقت مكتبـة الجامـع في الحرب، وهـي لا تجد الكتـب الكافيـة للدعوة إلى الإسـلام، ولاطـلاع الألمان الذين يريـدون معرفة تعاليمه، عـلى كل هـذه التعاليم».

وإننـي لعلى علـم بوضع هؤلاء المسـلمين المعزولين المبذوريـن في نواحي متفرقـة مـن أوروبـا، حيـث يحملـون إشـعاع الفكـرة الإسـلامية بعيـدًا عـن نطاقاتهـا التقليدية.

ولذلـك أحسـبني أقـرأ بين سـطور رسـالة الأخـت فاطمة، ما لم تسـمح لهـا كرامتهـا بكتابته.

ولكـن رسـالتها لا تـزداد إلا تأثـيرًا- عـلى مـا هـي عليـه الآن- عندمـا نكـون في شيء مـن العلـم، بالأشـياء التـي لا تذكـر بصريـح العبـارة.

أيتهـا الأخـت فاطمـة إن رسـالتك اتهـام موجـه ضـدَّ قـادة خمـس مئـة مليـون مسـلم! وضـدَّ أمرائهـم، ممـن تسـتطيع نفقاتهـم الباذخة لليلـة واحدة أن تمـول مشروعـك لسـنة كاملـة.

وضـدَّ علمائهـم ممـن يعـزز صمتهم الآثـم الكثير مـن الأخطـاء والخطايا في البلاد الإسـلامية!

أي أختـي فاطمـة، لَكَـمْ تكـون شـهادتك دامغـة، يـوم يقوم الحسـاب، ضـدَّ كل أولئـك الذيـن خانـوا رسـالتهم بالنسـبة إلى إخوانهم في الإنسـانية، الذيـن كانـوا- منـذ ثلاثـة عشر قرنًـا- في عـداد (الغائبـين) عن عرفـات يوم حجة الـوداع!

5 - المثال البريطاني:

إننـا باختيارنـا لعنـوان هـذا الكتـاب، قد اسـتقينا النمـوذج الأصـلي- كما لا يغيـب عن فطنة القـارئ- من مثال موجود فعـلًا، وهو (الكمنويلـث البريطاني).

وكل اختيار لمثال يفرض مواطن شَبَهٍ في مظهر الأشياء أو في ماهيتها.

ولكننـا لـو قمنا بصنـع تقويم لمواطن الشـبه هـذه، فإننا نصـل بالضرورة إلى نهايتهـا التـي تتبدَّى فيـما وراءها حينئذ مواطـن الاختلاف.

والمشـابهات قائمة على نحو من الأنحاء في مسـتوى المشـاكل، والمفارقات كائنة في طبيعتها؛ فالكمنويلث البريطاني (مسـاحة كبيرة).

وفي هـذا المسـتوى تتَّخذ المشـاكل صبغة جغرافية- سياسـية، أعني صبغة سياسـية محدَّدة بالمسـاحة على الخصوص.

والكمنويلـث الإسـلامي، بسـبب مسـافاته المحوريـة، والكتـل البشريـة التـي تشـملها مسـاحته، يضـع أمامنا مشـكلة ذات طابـع جغرافي- سـياسي، في مسـتوى الكمنويلـث البريطـاني.

وهـذه مشـابهة مهمة جدًا، من شـأنها، في مقياس معـين، الإيحاءُ بالحلول، والتقريـب بينها، خاصـة وأن الكمنويلث البريطاني، ليس دولـة، ولا فيدرالية دول، مـا دامـت كل بلاد عضوة فيه تمـارس سـيادتها في كل المجالات، وتملك تمثيلهـا الديبلوماسي الخـاص بها في الخارج.

وعلى العكس من ذلك، فإن دول (الولايات المتحدة الأمريكية)، تكون فيدرالية ذات تمثيل ديبلوماسي واحد.

والمترتب على هذا أنه لكي نحدِّد الرابطة العضوية، التي تستطيع الربط بين أجزاء كمنويلث إسلامي، يمكننا- ما دمنا على علم بالوضع الحقيقي لهذه الأجزاء- أن نستلهم المثال البريطاني، أكثر من استلهامنا للمثال الأمريكي أو السوفياتي.

على أن لهذه المشابهة نفسها حدها الذي لا تتعداه، فالرابطة العضوية بالنسبة إلى الكمنويلث البريطاني، المجسَّمة كما هو الواقع في شخص (ملك إنجلترا)، تدار سياسيًا بواسطة (لائحة وستمنستر)، الناجمة عن قانون صوَّت عليه (مجلس العموم البريطاني) في 11 ديسمبر سنة 1931.

ومن ناحية أخرى، فهو يدار من وجهة النظر الاقتصادية (باتفاقيات أوتاوا) التي تعين بعد سنة من التصويت على لائحة وستمنستر، أن تحدد موقف الكمنويلث، لمواجهة الوضع الاقتصادي العالمي، غداة الحرب العالمية الأولى، وبالخصوص لمواجهة عامل جديد هو: الانطلاق الصناعي لليابان.

فمن الوجهة السياسية والاقتصادية بالخصوص، يمنحنا المثال البريطاني إذن، عناصر بالغة الإفادة فيما يتعلق بتصميم أوَّلي للمثال الإسلامي.

إلا أن التشابه يقف لدى مدى جد مبكر، ولا يتيح لنا مثلًا أن نتصور الرابطة العضوية للكمنويلث الإسلامي مشخَّصة في (ملك) أو حتى في (رئيس جمهورية)، ولكن في (فكرة) هي: (الإسلام)، ممثلة في (مجمع دائم) يجسِّم (الإرادة الجماعية) للعالم الإسلامي، ويمثل مصالحه العامة.

والمقر الرسمي، لهذا (المجمع) يجب أن يكون في ذات الوقت

(الوحدة القاعدية) التي تتصل على أساسها أجزاء الكمنويلث المختلفة لتتبادل فيما بينها ما يتعلق (بشؤونها الإسلامية)، و (مركز الدراسة) للمشاكل النوعية في العالم الإسلامي، و (مركز الإنجاز والإذاعة) للحلول التي يعثر عليها.

وعلى هذا فإذا كان في إمكان المثال البريطاني أن يوحي بحلول نافعة للمثال الإسلامي، فإن لهذا الأخير، علاوة على ذلك، مشاكله النوعية التي تحتم حلولًا خاصة.

فالكمنويلث البريطاني في أساسه، (مجموعة دول)، ويترتب على هذا أنها ذات مشاكل سياسية بالخصوص، بينما يجب أن يكون الكمنويلث الإسلامي (مجموعة شعوب) بالخصوص.

ولكي نترجم هذا إلى لغة أكثر تعبيرًا نقول: إنه إذا كان المثال البريطاني، قد قُصِدَ به الإجابة عن شواغل سياسية، فإن المثال المسلم يجب أن يُقْصَدَ منه مواجهة المشاكل ذات الصبغة النفسية والاجتماعية التي أشرنا إليها طوال الفصول السالفة.

ولا يجب أن ننسى أن الكمنويلث الإسلامي من وجهة النظر (الوظيفية) يجب أن يمكن البشرية المسلمة، أساسيًا، من استدراك تأخرها، واستدراك تخلفها بالنسبة إلى التطور العام، وبالنسبة إلى المساحات الكبيرة المخطَّطة بالخصوص.

ومن ثَمَّ فنحن نرى أن مفارقاته مع المثال البريطاني، تذهب أبعد من المشابهات.

ويبدو هذا بمزيد من الوضوح، في الدور (الوظيفي) لكل منهما.

فلائحة (وستمنستر)، واتفاقيات (أوتاوا)، قد حُدِّدَتا في علاقتهما

الوظيفيَّة بالمشاكل الجغرافية- السياسية، التي تعبر إجمالًا عن مشكلة (القوة) البريطانية، كما تبدّت في السنوات العشر التي أعقبت الحرب العالمية الأولى.

وعلى العكس من ذلك، إذا ما وجب تحديد لائحة الكمنويلث الإسلامي، فإن هذا التحديد سيكون مؤكّدًا أميل إلى ما له من علاقة وظيفية بالمشاكل التي تتبدَّى، والتي يجب أن توضع في حدود (البقاء).

6 - نوعية المشاكل:

علاوة على المشاكل ذات الطابع الاجتماعي والأخلاقي التي سبق لنا تحليلها في الفصول السالفة، فإن الكمنويلث الإسلامي- باعتباره (هيئة مُمَرْكِزَة) و (مركزًا للبحوث) - يجب أن يدرس أيضًا بعض المشاكل المعينة ذات الصبغة الفنية الخاصة بالمجتمع الإسلامي.

ففي الإمكان تمييز مستوى هذا المجتمع باعتباره- كما سبق أن فعلت ذلك في دراسة أخرى- في حالة (قبل- حضارية)..

فالمشكلة التي توضع أمام كل مجتمع بشري يوجد في هذه الحالة، تمتد أساسيًا إلى عناصره (الحيوية- التاريخية) الثلاثة الرئيسية المتمثلة في: الإنسان، والتراب، والوقت.

وإذا كانت مشكلة الإنسان، هي التي توضع بصفة عامة، في المجتمع الإسلامي، فهناك مظهر يجب أن تعتبر فيه بصفة أخص، ونعني به (نزعة الترَحُّل): فالرَّحالة إنسان لم يتكامل بعدُ مع اطراد حضارة..

والواقع أنه يمْثُل في تقويم حياة اجتماعية لوَسَط معين، كعنصر (صِفْر) أو (محايد)، لأنه يظل بلا تصرف في هذا الوسط، وليس له من تأثير يذكر على توازنه الاقتصادي، ولا على توازنه الثقافي، بل ويمكنه إرباك توازنه السياسي عندما تتدخل فيه مؤثرات أجنبية، كما رأينا ذلك مرارًا في بلاد إسلامية كثيرة.

والواقع أن هناك بلادًا إسلامية عديدة تتضن من بين سكانها نسبة مئوية هامة من العناصر الرَّحالة التي لم تتكامل- بوصفها هذا- مع الحياة

الاجتماعيـة، بحيـث تكـون العلامة الأكثـر تأكيدًا للحالـة ما قبـل الاجتماعية التـي توجـد فيها هـذه البلاد.

وبقـدر مـا تـزداد هذه النسـبة المئويـة في بلاد ما، بقـدر ما تقـترب حالتها العقليـة من الشروط المحـدَّدة بالنفسـية الصبيانية.

ولـو أُجرِيَـتْ دراسـة منهجيـة عـلى هـذا الموضـوع، لأثبتـت بالتأكيـد- بتطبيقهـا للمعايـير الموائمـة- تأثير النسـبة المئوية للرَّحالة على المسـتوى العقلي للبـلاد التـي تناولتها الدراسـة.

وبطبيعـة الحـال فـما دام المتوقـع مـن هـذا (التأثـير) أن يصبـح (سـببًا) - وهـو أمـر طبيعـي في اطراد اجتماعـي معين- فإننا نـرى أيَّ (نتيجـة) يمكن أن يؤثـر بها عـلى عنـصر (الـتراب) مثلًا.

(فنزعـة الترحُّـل) تؤثِّـر على الـتراب، ليس فحسـب بطريقـة عددية، بواقـع أن جـزءًا معينًـا مـن السـكان غـير مسـتقر فيـه وضعيًـا، ولكنهـا تؤثـر فيـه نفسـيًا كذلـك؛ إذ أن حالـة التراب إلى حـد ما، انعكاس لنفسـية اجتماعيـة معينة.

وإذن، ومـن وجهـة نظـر فنية، فإن مشـكلة الـتراب تنطبـق بطبيعة الحال عـلى مشـكلة الإنسـان، وإن كان لهـا علاوة عـلى ذلك نوعيتهـا الخاصة.

والواقـع أن لمعظـم البـلاد الإسـلامية جـزءًا هامًـا، في قليـل أو كثير، من ممتلكاتهـا الأرضيـة في حالـة صحراويـة أو شـبه صحراوية.

والنسـبة المئويـة لهذا الوضع جـدُّ متباينة، ويمكنها أن تتعـدى في (العربية السـعودية) مثلًا التسـعين في المئة (٪90)؛ وتبقـى بكل طريقة.

فيما فوق الخمسـين في المئة (٪50) بالنسـبة إلى معظم الأراضي الإسـلامية كمصر وليبيـا وتونس وغيرها.

وحيثما يكون الإنسان رحّالة، والتراب في حالة صحراوية أو شبه صحراوية، فإن قاعدة الحياة الاجتماعية نفسها هي التي تشكو النقص، إذ أن (أساس) الحضارة هو المفقود.

على أنه يبدو أن البلاد الإسلامية قد أخذت تنتبه إلى هذه المشاكل الفنية، وتفتش عن الحل، على الأقل في إطار المنشآت الدولية المعنية.

وفي هذا الاتجاه نفسه، يعقد في هذه الآونة بطهران مؤتمر علمي يتناول موضوع دراسة الصحارى.

ولكن الحلول العامة، والتراتيب المتخذة بغية الانتقال من طور الدراسة إلى طور التطبيق، لا يمكن أن تظهر إلا في تخطيط إجمالي معانق لمشاكل الإنسان والتراب في البلاد الإسلامية.

وتحت هذا المظهر المزدوج، العلمي والتطبيقي، يتعين على المشاكل أن تتبع (مركزًا للبحوث) في مقدوره أن يكون الأداة الأكثر فعَّالية، لخلق (روح) الكمنويلث الإسلامي و (أداته).

خلاصة

إن هـذه الدراسـة جـد مجملة، لكـي تعرض بما فيـه الكفايـة لمحتوى فكرة كمنويلـث إسـلامي؛ وإن كانـت على هذه الصـورة أطول مما يجب بالنسـبة إلى الإطـار الضيـق المرصود لأعداد هذه السلسـلة.

وقـد اقتضانـا الإطـار اختصـار العـرض في كثـير مـن النقـط، والتحوير المنهجـي في أخـرى.

فنحـن لم نحـدد مثـلًا (الثقافة الإسـلامية) التي تسـتطيع إحياء الإنسـان المسـلم، وتكييفه مـن جديد مع مسـؤولياته بالنسـبة إلى الدوائـر المختلفة التي يتعـين فيهـا حضـوره للقيـام بمهمتـه كممثـل (أو صاحـب دور)، وكشـاهد عيـان، وكرسـول مبلغ..

إذ لا يمكنني تنـاول هـذا الموضـوع هنا- في بضعة سـطور، وإن كنـت قد ذكرت أفـكاري حـول هذا الموضـوع في مجال آخـر؛ ولذلك فأنـا أفترض أن القـارئ على علم بوجهـة نظـري تلك في هـذا الصدد، وأنه قـد تبنى وجهة النظـر هذه تلقائيًـا، في قراءته للفقـرات السـالفة، كما تبنيتها أنـا بطريقة ضمنيـة أثناء كتابتي لهـذه الفقرات.

ومـن ناحيـة أخرى، فـإن للثقافـة في القـرن العشريـن مظهـرًا جغرافيا- سياسـيًا يتعلـق برسـالتها في (عـالم الآخريـن)، وإذن فلهـا دورها بالنسـبة إلى مشـاكل هـذا العالم.

وضمـن هـذه العلاقـة فـإن أحد عنـاصر تحديدهـا- وهو عنـصر رئيسي ولا ريـب لم يتـح لنـا تناوله- هو مشـكلة السـلام.

وهذا أيضًا إغْفال مقصود فرضته ظروف العمل ذاتها.

ولكننا لا نستطيع إنهاء هذا العمل، دون أن نلفت نظر القارئ مرة أخرى إلى بعض النقط الخاصة التي لم نوضحها بما فيه الكفاية فيما سبق، أو التي لم نتناولها البتة في الفصول السابقة.

فقد أشرنا فحسب إلى بعض المعالم العامة في تحديد كملنويلث إسلامي من وجهة سياسية، تاركين لمن سيأخذون على عاتقهم الأعمال التحضيرية، إعطاء تحديد أكثر دقة، لكننا بمقارنته مع المثال الإنجليزي، قد أعطينا القارئ لمحة عن الوظيفة السياسية للمثال الإسلامي.

ونريد أن نحدد أكثر من ذلك طبيعة هذه الوظيفة، بتعريف سلبي على الأقل، نقتبسه من أحد أعداد سلسلة الثقافة الإسلامية بعنوان (الوحدة الإسلامية)، حيث كتب الشيخ (أبو زهرة) ما يلي في الصفحة (29): «إن الوحدة التي نبتغيها لا تمس سلطان ذي سلطان يقوم بالحق والعدل في المسلمين، ولا شكل الحكم في الأقاليم الإسلامية، فلكل إقليم أسلوب حكمه ما دام يؤدي إلى إقامة الحق والعدل فيه، ويحقق المعاني الإسلامية السامية».

إننا تقتبص هذه العبارات ليس فحسب لأن اتجاهها يلتقي مع التعريف الذي نوافق على منحه لفكرة الكمنويلث الإسلامي، ولكن لأنه يدعم هذا التعريف كذلك، بمنحه قاعدة شرعية..

لأنني لا أشك مطلقًا في أن وجهة نظر الشيخ (أبي زهرة) تعبر دائمًا عن مذهب القانون الإسلامي في أدق الحدود.

وهذه واحدة من النقط التي نريد تنبيه القارئ إليها مرة أخرى في هذه الخلاصة.

أما النقطة الثانية فتتصل بظاهرة لاحظها مراقبو التطورات العالمية؛ فقد لاحظ هؤلاء أن الحرب العالمية الثانية قد ترتب عليها حركة انتقال لقيم الحضارة

إلى الشرق، فنتج عن هذه الظاهرة حدوث توازن جديد بين القوى العالمية، أدى إلى تلك المكانة التي احتلها الاتحاد السوفياتي في مجال السياسة الدولية.

وقد بدأ أن العالم الإسلامي نفسه قد تأثر تطوره هو الآخر بمفعول هذه الظاهرة، حتى لقد أمكن أن يستنتج من ظهور بعض الدول الإسلامية في آسيا.

– نظرًا لكثرة عدد سكانها– الحكمُ بأن مركز ثقل التاريخ الإسلامي قد انتقل هو بدوره إلى الشرق.

وقد سبق لي أنا نفسي أن أصدرت مثل هذا الحكم في دراسة كنت كتبتها إبّان أحداث فلسطين التي كشفت عن مظاهر الضعف المؤسفة في العالم العربي؛ فقد كان يبدو آنذاك أن التاريخ الإسلامي سوف يتم إنجازه في القارة الآسيوية.

ولكن حدث بعد هذا الحين أن ظهرت أحداث جديدة كان من شأنها التأثير في تطور العالم العربي، الأمر الذي بدا معه أن مركز ثقل التاريخ الإسلامي قد رجع من جديد إلى معاقله التقليدية– كالقاهرة مثلًا– حيث كانت الثقافة الإسلامية تشع على العالم خلال القرون.

أما النقطة الثالثة والأخيرة– وهي التي نريد إلفات ذهن القارئ إليها بالخصوص– فتتعلق ببعض المجهولات التي لم تتبلور بعد بوضوح في الواعية الإسلامية الموضوعة أمام مشهد العالم المخطط.

وهذه المجهولات يمكن التعبير عنها بطرق عديدة، ومن الراجح جدًا أن يكون المختصُّون بمراقبة سير القضايا الإسلامية في العالم، متتبعين لتطورها بانتباه بالغ.

ويمكننا نحن أنفسنا أن نتمثل هذا التطور في صورة عملية كيميائية تتمّ في إناء مغلق.

ومنذئذ نصبح بإزاء مشكلة ميكانيكية؛ فإذا توازنت القوى الداخلية والقوى الخارجية على جانبي حواجز الإناء، أمكن للعملية أن تستمر في تساوق، وأن تؤول إلى نتيجتها الطبيعية.

أما إذا حدث أيُّ اختلال في التوازن فإن حواجز الإناء تتطاير شظايا بديدة في الهواء، وتتوقف العملية الكيميائية توقفًا لا يمكن تداركه.

إن الإناء المغلق يصور العالم الإسلامي في مجرى تطوره الراهن؛ فهناك قوى داخلية تعمل على تحويله بغية تكييفه مع الحياة العالمية الراهنة إلا أنه يعاني على دائرة محيطة- كما سلف أن أوضحت ذلك- مفعول قوى خارجية مريبة.

فإذا لم يتح للقوى الداخلية أن توازن مفعول القوى الخارجية، فإن الأمر سيؤول لا محالة إلى تطاير حواجز الإناء شظايا بديدة في الهواء؛ وحينئذ يتسنَّى للنزعة الاستعمارية وللشيوعية التقاط تلك الشظايا البديدة.

إلا أنه يجب علينا أن نقول بأن خطورة المشكلة قائمة في داخل ذلك الإناء بوجه خاص.

وفي متوقفة على أولئك الذين يوجهون العملية الكيميائية التي تعمل على تغيير العالم الإسلامي في هذه المرحلة من تاريخه.

إن أيَّ سهو من جانبهم قد يؤدي إلى انفجار الإناء.

وإذا حدث الانفجار، فلن يكون مجديًا أن تقول لأولئك المتطلعين لهذه اللحظة، لا تلتقطوا شظاياه!

ومن ثَمَّ فلا ريب في أن الخطر سيظل يتهددنا طوال العشرين سنة القادمة..

ولكن (الإسلام) يظل دائمًا القوة التي لا تحطم.

نقله عن الفرنسية

الطيب الشريف

فهرس الموضوعات

القسم الأول: مشروع دراسة شاملة 9
أ – تأريخ الفكرة 11
ب – مشروع دراسة مكتملة: 33
القسم الثاني: قيمة (الفكرة) في المجتمع الإسلامي 45
أ – (الفكرة) في المجتمع الإسلامي: 47
ب – اللافعالية في المجتمع الإسلامي: 59
القسم الثالث: وظيفة كمنويلث إسلامي 67
1 – مناطق (الحضور): 69
2 – تبعية المشاكل: 73
3 – الشهادة: 77
4 – الرسالة: 79
6 – نوعية المشاكل: 87
خلاصة 91